بعد الهسكلاه وقبل العالياه: دراسة مقارنة للقومية وعالم الجوييم في الفكر السياسي الصهيوني الحديث عند هس وبنسكر وهرتزل وهعام

Post-Haskalah and Pre-Aliyah: A Comparative Study of Nationalism and The Role of The Goyim Gentile World in The Modern Zionist Political Thought of Hess, Pinsker, Herzl and Ha'am

رامي مجدي عبدالمنعم

مدرس العلوم السياسية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية – جامعة القاهرة

المستخلص:

كيف يمكن لمشروع فكري وسياسي استيطاني كالصهيونية أن يعول على الدعم الاستعماري الغربي برغم مركزية عقيدة الحلولية لديه (شعب الله المختار) وسموه عن الجوييم (الأغيار الوثنيين من غير اليهود)؟ أو بمعنى آخر ما هو التبرير الفكري الذي يمكن من خلاله إعادة تقييم العلاقة ما بين حلولية الشعب المختار[١] ووثنية الجوييم[٢] بحيث يمكن أن يلعب الجوييم بوثنيتهم دورا في مشروع إعادة بناء القومية اليهودية سياسيا تمهيدا للتوطين. ويعد مناقشة سؤال كهذا محوري لفهم التحولات التي مكنت الصهيونية من إخراج اليهود الاوروبيين بعيدا عن التمترس الانعزالي حول الغيتو والخروج للعالم كقوة غربية استعمارية تمارس السياسة والاستيطان كبقية القوى الاستعمارية الغربية. وقد سعى الفكر السياسي الصهيوني الحديث عبر آبائه الأولين لتقديم أشكال مختلفة لصياغة فكرة القومية اليهودية من رحم اليهودية كديانة ولتقديم رؤية عن عالم الجوييم الغربي (العالم الوثني الغربي) ودوره في تعزيز أو كبح تلك القومية، وكيف يمكن لتلك العلاقة أن تساهم في تحقيق المشروع الصهيوني الخاص بتوطين اليهود خارج أوروبا. وقد كانت لحركة الهسكلاه[٣] (الاستجابة اليهودية الأوروبية لفكر عصر التنوير في القرن

---

[١] حلولية pantheism تعني حلول الإله في الكيانات الدنيوية مما يجعل لها طابع مقدس، ويشير عبد الوهاب المسيري في موسوعته لمفهوم الثالوث الحلولي المقدس في اليهودية والتي وظفتها الصهيونية، ثالوث الإله والأرض والشعب، فحلول الإله في الأرض يجعلها مقدسة وحلوله في الشعب واصطفاؤه لهم يجعلهم شعبا مختاراً

عبد الوهاب المسيري،**موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية**، المجلد الخامس، الجزء الثاني، الباب الثاني،المكتبة الشاملة، ص ١٦٢ ، متاح علي: https://shamela.ws/book/2074/5203، تاريخ الاطلاع ١٧ سبتمبر ٢٠٢٤

[٢] جوي גוי Goyوثني أو غير يهودي و جوييم גויים Goyim شعب وثني وغير يهودي، والجوييم ذكرت في سفر التكوين بمعنى أمة أو أمم، يهودية كانت أو غير ذلك، غير أن الاستخدامات اليهودية اللاحقة علي الفترة الهلنستية اليونانية بعد القرن الأول الميلادي أصبحت تطلق العبارة علي الأمم من غير اليهود، أو الوثنيين بشكل عام، لكن هناك جدل عن مدى اعتبار المسيحيين\المسيحية و المسلمين\الإسلام جوييم أم لا، غير أن الغالب في الكتابات اليهودية اللاحقة على الفترة الهلنستية أنها مخصصة لغير اليهود دينا أو شعبا.

انظر:

Jewish Encyclopaedia, **Gentile**,2002-2021, Available at: https://jewishencyclopedia.com/articles/6841-goy, last accessed 17 September 2024

[٣] هسكلاه הַשְׂכָּלָה Haskalah في الأصل تعني تعليم أو حكمة ولكن مصطلح يشير لحركة فكرية وثقافية ترفع شعار التنوير اليهودي وذلك باتباع أفكار التنوير عن الحرية والمساواة والمواطنة وتدعو للاندماج في الشعوب الأوروبية والخروج من الغيتو والانعزالية اليهودية ودراسة مختلف موضوعات المعرفة والعلوم.

Shira Shoenberg, The Modern Jewish History: **The Haskalah**, Jewish Virtual library, available at: https://www.jewishvirtuallibrary.org/the-haskalah, , last accessed 17 September 2024

الثامن عشر) دور كبير في تشكيل الخطاب الصهيوني الحديث والذي بدوره صاغ مشاريعا فكرية سياسية قامت علي تصورات لعلاقة مع الجوييم الغربي من أجل التمهيد وبدأ "العالياه"[٤] أي الهجرات اليهودية الفعلية بأعداد ضخمة لفلسطين (أو ما يسمونها ب ايرتس إسرائيل–أي أرض إسرائيل) في نهايات القرن التاسع عشر. ولهذا تهتم هذه الورقة بقراءة مشروعات صياغة القومية في الفكر السياسي لأربعة من أهم آباء الفكر السياسي الصهيوني وهم موسى هس و ليون بنسكر وتيودور هرتزل وآحاد هعام ،وذلك عبر قراءة مدى تأثرهم بالهسكلاه ورؤيتهم لفكرة القومية اليهودية وتصورهم لدور الجوييم الغربي في تلك الفكرة وأهم الأدوات والتي من خلالها يمكن بدأ العالياه (الصعود المقدس– أو الهجرة لأرض فلسطين).

الكلمات المفتاحية: صهيونية، إسرائيل، هيرتزل، هسكلاه، يهودية، فلسطين.

Abstract

How can an intellectual and political project like Zionism count on Western colonial support despite the centrality of its doctrine of(chosenness) and its superiority over the goyim (the gentile non-jews)? In other words, what is the intellectual justification through which the relationship between the divine chosenness of people and the paganism of the goyim can be re-evaluated, so that the goyim, though gentile, can play a role in the project of rebuilding the Jewish nation in preparation for settlement? Discussing such a question is pivotal to understanding the transformations that enabled Zionism to take European Jews away from the ghetto and go out into the world as a Western colonial power that practices politics and settlement like the rest of the Western colonial powers. The founding fathers of the Modern Zionist political thought attempted to present different formulations for Jewish nationalism using Judaism that presented a role of the Goyim Gentile Western world that is supposed to be strengthening or suppressing that nationalism, and how that role can contribute to achieving the Zionist project of settling Jews outside Europe. The Haskalah movement (the European Jewish response to the Enlightenment thought in the eighteenth century) played a major role in shaping the modern Zionist discourse, which in turn formulated intellectual and political projects based on perceptions of a relationship with the Western gentiles in order to pave the way and begin the "Aliyah", i.e. the actual Jewish migrations in large numbers to Palestine (or what they call Eretz Israel - the Land of Israel) at the end of the nineteenth century. Therefore, this paper is interested in reading the projects of formulating nationalism in the political thought of four of the most important fathers of Zionist political thought, namely Moses Hess, Leon Pinsker, Theodor Herzl and Ahad Ha'am, by reading the influence of Haskalah on their thoughts, their vision of the idea of Jewish nationalism, their perception of the role of

[٤] عالياه עֲלִיָּה A liyah حرفيا تعني العلو والصعود، ولكن في معناها تعني الصعود للأرض المقدسة ومفادها حديثا هو الهجرة اليهودية جماعيا لفلسطين (أو ما يسمونها أرض إسرائيل في الموسوعات اليهودية) وسبب التسمية لذلك ليس فقط ما يمثله ذلك من صعود وسمو روحي للذهاب للأرض المقدسة ولكن لظروف جغرافيا القدس وارتفاعها عن مستوى البحر فالذهاب لها يمثل أيضا صعودا ماديا.
Jewish Virtual library , **Aliyah**, Jewish Virtual library, available at: https://www.jewishvirtuallibrary.org/aliyah , last accessed 17 September 2024

the Western gentiles in that idea, and the most important tools through which the Aliyah (the holy ascent - or migration to the land of Palestine) can be begun.

Keywords: Zionism, Israel, Hertzl, Haskalah, Jews, Palestine.

أولا: القومية اليهودية والجدل النظري حولها

القومية كرابطة تجمع جماعة من البشر وتحفزهم للتضامن السياسي تحت هيئة حاكمة سواء في حاضرها أو بالنظر لمستقبلها دوما ما كان موضوعا حاضرا في دراسات العلوم السياسية بمختلف اتجاهاتها، غير أن القومية كظاهرة هي محل جدل واسع حول جوهرها وأصلها، وفي هذا الصدد يمكن رصد أكثر من اتجاه. فالجدل الأهم والذي يخص دراستنا في إطار دراسات القومية هو الجدل حول منشأ الفكرة القومية، أي كيف تنشأ القوميات ومن أي أصل؟ وفي هذا السؤال تياران أساسيان، التيار البدئي (الأصلاني) perrenialist/primordial و التيار الحداثي modernist،, وبرغم تصنيف التيار البدئي prerrenialist والأصلاني primordial أحيانا علي أنهما منفصلان ولكنهما يطرحان تقريبا نفس الطرح ويحملان نفس العلاقة الجدلية تجاه التيار الحداثي فيما يخص سؤال القومية.و يحاجج التيار الأصلاني\البدئي إلى أن القوميات هي كيانات طبيعية تقوم علي روابط أصيلة كالقرابة والدم،وأن نشأتها طبيعية عبر مدد طويلة ومنذ أزمان سحيقة. فأصبحت القومية كيانا طبيعيا أصيلا يعبر عن روابط حقيقية وقديمة، وهي صنفان: بدئية أصلانية مستمرة continuous تزعم استمرار القومية كوحدة عبر الزمن، وبدئية أصلانية متكررة recurrent أو دورية، حيث تظهر فيها القومية بعناصرها عبر فترات متقطعة في التاريخ . وتعود الأصلانية البدئية لكتابات المفكرين وعلماء الاجتماع والأنثروبولوجيين والفلاسفة فختة، كليفورد جريتز، ادوارد شيلز، ايفانز بيتشارد.[١]

غير أن في مواجهة هذا التيار يقف تيارا آخر يمكن اعتباره هامشا نقديا علي متنه، وهو التيار الحداثي والذي ينفي معقولية الطرح البدئي الأصلاني رافضا أن تكون القوميات في عصرنا الحالي هي امتداد لأي وحدات قومية ماقبل حداثية تزعم لنفسها الأصالة. فالقوميات في العالم المعاصر نشأت نتيجة التحولات التي عايشتها المجتمعات الحديثة نتيجة واستجابة للمتطلبات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي فرضتها الحداثة، وفي هذا الصدد يمكن البدأ بارنست جلنر الذي رأى أن التصنيع الحداثي أدى إلى تفكيك المجتمعات القديمة وتحويلها لأفراد مستقلين، ولكن متطلبات إدارة الاقتصاد في هذه المجتمعات تستدعي بناء كيانات تجمع بين هؤلاء الافراد وتنشئ ثقافته وتصبح تنميته اقتصاديا غاية هذا الكيان، فكأن القومية هي إعطاء الروح لمجتمع الاقتصاد الجديد[٢].

لكن من الهام الإشارة إلى أن القدرة علي تقسيم الإسهامات في شأن القومية بين بدئية أصلانية وحداثية غير جائزة بشكل حدي ولكن يمكن وضع الاسهامات علي موضع فوق خط مستمر continuum ما بين البدئية و الحداثية،[٣] وهنا يمكن الإشارة إلى عمل بندكت اندرسون المهم عن الجماعات المتخيلة، والذي من عنوانه يمكن الجزم بأنه عمل حداثي، غير أن اندرسون يرى أن انهيار يقينيات ما قبل الحداثة[٤] وفكرة أن الكون منظم وفقا للرعاية الإلهية وذلك بعد التطورات التكنولوجية التي أحدثتها الحداثة والرأسمالية، كل هذا عزز الحاجة نحو كيان

جديد يستثمر جهود الناس ويضع معنى لحياتهم فكان من صناعة الأمة المتخيلة السبيل لذلك. غير أن تلك الأمة المتخيلة لا تنشأ كليا من الصفر بل تعتمد في بنائها على عدد عناصر تبني لغتها وتقليدها وقد تستمد تلك العناصر أصلها مما قبل الحداثة، وهذا ما قد يجعل اندرسون ليس حداثيا بالكلية ولكن أقرب للحداثية منه إلى البدئية الأصلانية[٥].

ويقف ايريك هوبسبام[٦] و ايلي كوديري[٧] موقف المقلل من أهمية الامتدادات بين العناصر ما قبل الحداثية وحاضر الأمة فالمهم هو نشوء الأمة وفقا لمتطلبات الحداثة والدولة الحديثة وهي في ذلك –وفقا لسباير تعيد توظيف ما لديها من عناصر تجمع هذه الأمة،و إن لم تجدها ستقوم باختراعها وبناء تقاليدها.ومن ثم وجود العناصر ما قبل الحداثية في حاضر الأمة الحداثية أو غيابها ليس ضروريا لقيام القومية فعلى أية حال كانت سبتني القومية عناصرها الممكنة[٨].

غير أن التجاهل والتقليل من أهمية العناصر ما قبل الحداثية في بناء القومية لم تستسغه قلة من الدراسات أهمها دراسة جون ارمسترونج، والذي رأى أن الحركات القومية قبل الحداثة وبعدها دوما ما تلتف حول أسطورة مركزية ورمز خاص،عادة ما كان منشأه قبل حداثي أو قديم ولا زمني، ومن ثم لا يمكن تجاهل مركزية العناصر ماقبل الحداثية في بناء القومية.[٩] ولا يختلف عنه في ذلك أنتوني سميث لما فيه تقدير للعناصر القديمة لما ركز بالأساس على عملية انتقال العناصر ماقبل الحداثية لتشكل جوهر القوميات الحداثية، فالمجتمعات المعرفة أثنيا قبل الحداثة نشأت بناءًا علي أسطورة مركزية وسردية عن نفسها (في الغالب الدين أهم عنصر فيها) ولما أدت الحداثة لاضطراب الهويات والمجتمعات سعت القومية الخاصة بهوية أو أخرى إلى صناعة شكل جديد لتلك الهوية والقومية بإعادة استدعاء السردية والأسطورة وجعلها أكثر نشاطا وبشكل معدل، لا يعني ذلك أن تلك القومية الناشئة ذات طابع بدئي ولكنها اعتمدت في بناء ذاتها على عناصر ذات سمات بدئية أصلانية[١٠].

ويعد الجدل حول استدعاء عناصر قبل حداثية لتوحي بأصلانية القومية مهم حيال مناقشة قضية القومية اليهودية وهي جوهر الفكر الصهيوني، وهذا بدوره يأخذنا للجدالات حول القومية اليهودية كأساس لدولة إسرائيل وعنصر مركزي في الأيدلوجية الصهيونية.

ومن هنا يمكن النظر لتلك الجدالات عبر ثلاثة اتجاهات يمكن وضعها تحت المظلة الكبرة لجدالات القومية– وهي اتجاه أقرب للبدئية الأصلانية– اتجاه حداثي صرف واتجاه يربط بين الاتجاهين.

وقدم جوناثان سباير صياغة جيدة لاهم جدالات القومية الإسرائيلية واصلها، ولكن ة وقبل الولوج في تلك القضايا ففي دراسة الحالة الإسرائيلية هناك من يشير بتفرد واستثنائية إسرائيل والتي من الصعب تصنيفها بين الحالات الغربية ولا يمكن تصنيفها من الشرق و هي دراسة بارنت[١١] وكذلك رؤية دانيال اليعاذر[١٢] بان إسرائيل دولة متفردة في ملامحها– وهوما ضيق من معناه لاحقا ميندلو لما رأى أن دراسات الأحزاب الإسرائيلية و

سلوكياتها أصبحت الآن مساحة جيدة للدراسة والتعميم على غيرها من الحالات مما ضيق من قبول فكرة الاستثنائية.[١٣]

وبالعودة لقضية القومية يمكن اعتبار الرافضين لأصالة المشروع الصهيوني بـ"مابعد الصهاينة"[١٤]–post zionists معتمدين بالأساس علي رؤى الاتجاه الحداثي وفكرة القومية كاختراع مصطنع– بينما يعتمد المدافعين عن أصالة المشروع الصهيوني و في اقصي تقدير القائلين بامتداده التاريخي باعتبارهم بدئيين أصلانيين او انهم يشكلون سرديات قومية كدلالة علي رغبة الامة تقرير مصيرها وفقا لعناصر قديمة و ممتدة.

ويمكن اعتبار الإباء الأوائل للصهيونية أنهم بدئيون بامتياز لاعتبارهم المشروع الصهيوني الداعي إلي للقومية اليهودية على أنه ذروة التاريخ اليهودي الممتد عبر القدم– وقد اتفق هالبرن علي القول بأن فكرة الدولة اليهودية التي قدمتها الجركة الصهيونية تعتبر ظاهرة بدئية تقوم علي فكرة امتداد روابط الأرض و الوطن والمصير[١٥]. علاوة على هذا حاجج جدعون شموني بوجود جماعة يهودية اثنية مميزة في القرنين التاسع عشر والعشرين ومتجذرة في التاريخ اليهودي قبل الحداثة– ويعد هذا التجذير الإثني التاريخي مؤثرا في استجابة اليهود للتنوير و دلالة على ذلك ظهور الصهيونية الثقافية علي يد مفكرين مثل احاد هعام وسيمون دابنو. وبشكل أكثر أصلانية راي اليعاذر دون يحيا وبرنارد سوسير ان التاريخ اليهودي المتفرد هو العنصر الذي يربط بين ديمقراطية إسرائيل والتزاماتها الاثنية القومية[١٦].

في المقابل يظهر مفكرو مابعد الصهيونية لينفوا أي تفرد أو امتداد للقومية اليهودية المنشِئة لإسرائيل– ويصنف أوري رام كل من جيرشون شافر و افيخاي ايهرليش[١٧] وهو نفسه في هذا الاتجاه الذي ينظر لإسرائيل من الخارج ككيان استعماري. رام والذي رأي في إسرائيل مجرد مجتمع استعماري استيطاني نشا كشركة استعمارية وأن القومية هي مجرد لحظة حداثية ستأحذ وقتها وتنهار على اثر العولمة– فكما ان القومية الإسرائيلية هي اختراع استعماري لاءم ظروف الحداثة فقوميتها ستنهار مع العولمة لانقضاء ظروف نشأتها[١٨].

وكذلك يرى ايلان بابي أن القومية دوما مخترعة وتحتاج لبناء الأعداء والأخرين– فمهمة القومية الإسرائيلية والتاريخ الإسرائيلي كايدلوجية هي التلاعب والإخضاع [١٩]. وهو ما اتفق عليه اورين يفتاشيل بأن إسرائيل هي مستعمرة اثنية نقية مؤسسة علي سيطرة جماعة اثنية معينة تسعي لمد سيطرتها علي جيرانها فهي اثنوقراطية تنتهك القانون الدولي لتمييز جماعة بعينها و تستخدم فكرة القوية لتغطية مصالح نخبها[٢٠]. وقد رأي جيرشون شافر أن تطور القومية الإسرائيلية معتمدة علي ايدلوجية الصهيونية العمالية والتي قامت علي حاجات اقتصادية بحتة، فإسرائيل ككيان استيطاني بدأ باستيطان الرأسماليين المستوطنين وحاجتهم للعمل الرخيص ومن ثم ظهرت القومية كأداة في الصراع بين العمال من ناحية الذين ينادون بسوق عمل متجانس وفرص توظيف متوافرة، والرأسمالين الملاك من ناحية أخري الذين يسعون للعمل الرخيص خدمةً لاستثماراتهم– فاختراع التقليد (القومية اليهودية) هو وسيلة لإدارة مشاكل التوظيف و العمل في الكيبوتز وليس تطور ايدلوجي فكري[٢١]. وهو ما أكده باروخ كميرلنج

الذي رأى ان الصهيونية كفكرة هي نتاج مصالح مادية هادفة واستجابة لضغوطات واقعية– تلك الظروف المادية هي محرك الصهيونية وليس أي مفاهيم ايدلوجية مجردة[٢٢].

هذا وإن تحداه يوناثان شابيرو بتأكيده علي أهمية العناصر الايدلوجية العمالية في الفكر الصهيوني إلا أن هذه الأهمية لا تنبع من امتدادها التاريخي ولكنها أداة لمساعدة جماعة بشرية لحيازة القوة السياسية كما انها استجابة منها لنوعية التمويل الذي تلقته إسرائيل في نشأتها من الغرب الرأسمالي– فالصهيونية العمالية كانت وسيلة قومية لمنع التحول الفعلي نحو الاشتراكية، فكان البعد القومي مهم للتمايز عن الاشتراكية وملاءمة مصالح الممولين الغربيين، ومن هنا تبدو القومية كأداة ملاءمة للمصالح المادية[٢٣]. وقد دلل زعيف سترنهيل بناءًا علي أقوال زعماء الصهيونية أن الصهيونية العمالية بطابعها القومي ما هي الا مشروع غرضه الاستيلاء علي الأرض واستيطانها و تأطير ذلك في إطار أيدلوجي قومي عابر للطبقات [٢٤].

وبين هؤلاء وهؤلاء يقف مفكرون يربطون ما بين الاتجاهين ومنهم ارثرهرتزبيج والذي يرى أن الصهيونية لا يمكن فهمهم دونما فهم أثر الحداثة علي سياقها. حيث يرى هرتزبج أن الصهيونية وصياغتها للقومية هي نتاج تنازع النزعة المشيحانية في اليهودية التقليدية messianism في مقابل المعنى الجديد الذي اضفته الصهيونية ومرحلة الاعتاق الأوروبية emancipation واللتان مثلتا قطيعة مع الماضي اليهودي– فالصهيونية بالنسبة لهرتزبج مثلت ميلا جديدا مفاده اعتبار اليهود أنفسهم ليس كجماعة ذات قداسة دينية ولكن كأمة تحاول أن تعرف نفسها وتحدد طريقها مثلما فعلت بقية الأمم الغربية ولكن عملية تحديد وتعريف الذات تلك قامت على أحجار عدة، كثير منها قديم وقبل حداثي[٢٥].

أما يوسف جورني رأى أن العناصر الايدلوجية الفكرية في المشروع الصهيوني والتي عادة ما ينكر تأثيرها مفكرو مابعد الصهيونية لا يمكن اثبات انها بالفعل المحرك والملهم الرئيس للحركة الصهيونية–غير أن دراسة الظروف التاريخية لتلك الحركة تكشف محورية الأيدلوجية للمشروع الصهيوني ودورها في تبرير تنظيماتها المختلفة[٢٦].وفي مقابله يعتقد شمويل ساندلر[٢٧] أن الحداثة حفزت الهوية الاثنية الخاملة للقومية اليهودية وقد أدى التنوير لنموها فأصبحت حركة قومية نشطة. وهو ما وافقه ايمانويل نافون[٢٨] حيث نظر للصهيونية علي انها نتاج اثنية قبل حداثية تأثرت لاحقا بالقومية الأوروبية– فالقومية اليهودية هي نتاج تقليد ديني قديم اشتبك مع أزمة هوية اجتماعية عايشها اليهود الأوروبيين بعد التنوير و الاعتاق الأوربي لهم.

غير أنه وبرغم الجدل الدائر حول أصالة القومية اليهودية كأساس لدولة إسرائيل والمشروع الصهيوني إلا أن ما فات تلك الأدبيات الثرية هو مناقشتها لبعدين أساسيين هو كيف صاغ آباء الحركة الصهيونية فكرة القومية اليهودية في إطار لحظة بناء الحركة،والأمر الآخر هو انه وبرغم ميل كثير من مفكري دراسة القومية اليهودي نحو القول بأنها ظاهرة استعمارية او ظاهرة غربية إلا أنه لم يناقشوا موقع الغرب في صياغة مشروع تلك القومية، فالأمر الجدلي والذي تطرحه الدراسة هو أن القومية اليهودية كأساس للمشروع الصهيوني قامت على تفرد النزعة الحلولية اليهودية (أي كونهم شعب الله المختار) والتي هي السند الذي وفقا له تقوم دعوتهم للتوطن في فلسطين

(أرض كنعان الموعودة)، فكيف لهذا الشعب المتفرد أن يقوم برسالته المشيحانية (الممهدة لظهور الماشيح اليهودي– أي المسيح المخلص لليهود من عذاب الشتات ويؤسس القدس وفيها الهيكل[٢٩]) بناء على دعم العالم الغربي الوثني (وهو من الجوييم– أي الأمم الأخرى غير اليهودية) وهي العلاقة التي إذا ما نظر إليها من منظور تلمودي تساوي معادلة "تحقيق رسالة الله بأيدي الوثنيين". وما في ذلك من تجديف وهرطقة. ولكن دراسة ذلك الجدل لدى أباء الحركة الصهيونية لن تكون دراسة دينية حول أحكام التلمود فيما يخص العلاقة مع الجوييم ولكن دراسة للصياغات الفكرية السياسية عن علاقة القومية اليهودية النشطة في المشروع الصهيوني مع العالم الغربي ودور العالم الغربي في هذا المشروع.

ومن ثم لا يحرك الدراسة فرضية ولكن لغز وسؤال وهو ذلك التناقض الملفت للنظر بين الحلولية والاعتماد علي الجوييم لتنفيذ المهمة الإلهية للشعب المختار وتحاول الدراسة تفكيك وفهم ذلك التناقض في ضوء لحظة البداية في الحركة الصهيونية الحديثة.

ويلهم سؤال الدراسة بكل شك هو اللحظة الحاضرة والتي تكثفت فيها الجدالات في الغرب والعالم العربي حول شرعية الدولة الإسرائيلية ومدى حقيقة امتداد القومية اليهودية وأحقيتها في الأرض، وهو النقاش الثائر علي هامش العدوان الإسرائيلي المستمر ومجازره على الشعب الفلسطيني والتي أثارت استياء قطاعات عدة في الرأي العام الغربي والغضب والسخط الدائم للرأي العام العربي.

وسيركز الباحث بشكل رئيس على أعمال أربعة مفكرين من آباء الحركة الصهيونية وهم موسى هس رائد الصهيونية العمالية و ليون بنسكر وهو من أرباب الصهيونية العملية التي سبقت هرتزل ومهدت لصهيونيته السياسية،وتيودور هرتزل مؤسس الصهيونية السياسية و آحاد هعام مؤسس الصهيونية الثقافية. وكلهم في إطار الفترة الزمنية التالية علي الهسكلاه (استجابة اليهود الأوروبيين لأفكار التنوير الداعية لفكرة المساواة والحرية والاندماج في الدولة) نهايات القرن الثامن العاشر وحتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر، و قبل العالياه (بداية الهجرة الفعلية بأعداد كبيرة لأرض فلسطين أو ما يسمونها (ايرتس إسرائيل–أي أرض إسرائيل) في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وحتى تأسيس دولة إسرائيل.

وبهذا يكون **سؤال الدراسة** " **كيف صاغ المفكرون من آباء الحركة الصهيونية فكرة القومية اليهودية كأساس للمشروع الصهيوني ودور الجوييم الغربي في هذا المشروع؟**

وتكون أسئلة الدراسة الفرعية كالتالي:

١– ما دور آباء الحركة الصهيونية موسى هس، ليون بنسكر، تيودور هرتزل وأحاد هعام، في تطوير المشروع الصهيوني؟

٢– كيف كانت استجابة الأربعة لفترة الهسكلاه وما تبعها تمهيدا للعالياه؟

٣– كيف صاغ الأربعة فكرة القومية اليهودية كأسس للمشروع الصهيوني ؟

٤- كيف رأى الأربعة دور الجوييم الغربي في مشروع توطين القومية اليهودية ؟

٥- ما أهي دوات تحقيق العالياه و التوطين وفقا للمفكرين الأربعة و تبريراتهم لها؟

ثانيا: أهمية فترة الدراسة وعينة مفكريها وموضوعها

تركز الدراسة بالأساس علي الفترة من بعد الهسكلاه لبداية العالياه- أو بمعنى أصح الفترة مابعد نشوء حركة الهسكلاه وهي ردود الأفعال اليهودية علي فكر عصر التنوير والذي نادى بالمواطنة والمساواة ودعى اليهود للاندماج في الدول القومية في أوروبا (أوروبا الغربية وروسيا القيصرية) وهو الفكر الذي أثار جدلا واسعة في الدوائر اليهودية الأوروبية حول أهمية الخروج من الغيتو والاندماج كمواطنين أوروبيين في الدول الغربية ،وأن ينزع اليهودي عن نفسه انتماءه الأولي كيهودي ويصبح مواطن أولا ثم يهودي ثانيا. وهو ما صاحب قوانين الإعتاق الأوروبية والتي بدت فيها الدول الأوروبية الحديثة مستعدة لمنح حقوق المواطنة لليهود على أراضيها، غير أن الفترة التابعة على الهسكلاه كشفت عدة احباطات أجهضت طموحات الاندماج، فاستمرار معاداة اليهود (أو ما يسميها آباء الحركة الصهيونية بمعاداة السامية) في الغرب و روسيا، كما والتحيزات الدينية المسيحية من وراء الإدماج اليهودي كل ذلك شكك في جدوى الاندماج بل وفي القدرة علي البقاء في المجتمعات الأوروبية، وقد وصل ذلك التدهور ذروته مع قضية دريفوس Dreyfus Affair في فرنسا وما تسميه الصهيونية بمذابح اليهود في روسيا Russian Pogroms- وهي سلسلة الأعمال العنيفة التي قام بها المسيحيون الروس ضد اليهود في روسيا على إثر اتهام أحد اليهود بالمشاركة في مؤامرة اغتيال القيصر الروسي الكسندر الثاني[٣٠].

وقد كانت تلك الفترة بعيد المذابح الروسية وقضية دريفوس فترة الانتقال في الفكر اليهودي ليكون أقل ايمانا بالاندماج وبجدوى الاعتاق الأوروبي وبداية التفكير في ما يسميه ليون بنسكر بالانعتاق الذاتي أو ما يسميه آباء الحركة الصهيونية بمساعدة الذات كفعل إرادي جماعي يهودي يسعى لإنهاء مشاكلهم في الغرب عن طريق البحث عن حلول جذرية لها تمثلت لدى آباء الحركة الصهيونية بالانفراد بدولة يكون لليهود الأغلبية فيها، ومن ثم لا يكونون أقلية مضطهدة مرة أخرى. وقد كانت تلك الفكرة ليست فقط استجابة للتدهور الشديد في علاقة اليهود بالغرب بعد هدنة فترة الاعتاق التالية على الثورة الفرنسية، ولكنها حدثت أيضا في إطار نهوض الفكر القومي الانفصالي في أوروبا على إثر تفكك الامبراطوريات متعددة القوميات وسعي قومياتها المختلفة لإقامة دولا تعبر عن هويتها كاليونان والصرب ورومانيا ولاحقا بلغاريا بسبب ضعف الدولة العثمانية، الأمر الآخر أن الحركة الصهيونية وفكرة تأسيس الوطن اليهودي صيغت في إطار ذروة الحركة الاستعمارية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وظهرت في مخيلة العديد من آباء الحركة الصهيونية كتجلي من تجليات ممارسة الرجل الغربي للاستعمار، وكأنها تماهي يهودي مع الغرب على إثر الهسكلاه ولكن بغية الاستقلال عنه. فخرج اليهودي الصهيوني للعالم كرجل غربي أبيض يمارس هو الآخرالاستعمار ولكن بغرض الاستقلال عن الرجل الأبيض نفسه[٣١].

وقد سعت الأفكار الصهيونية إلى تأسيس الدولة اليهودية عن طريق الاستيطان القائم على الهجرة سواء التدريجية أو الجماعية وهو ما أفضت تمخضاته الفكرية والسياسية لبدء حركة العالياه (وتعني الصعود والعلو) وهي تعني في اليهودية الصعود نحو الأرض المقدسة (أي الهجرة بالمعني المجازي) ومعناها الحرفي الصعود للصلاة في جبل الهيكل والذي كان يرتفع عن الأرض المحيطة به، فالعالياه هي بداية الهجرة الفعلية بأعداد كبيرة من يهود أوروبا الغربيين والروس إلى فلسطين استجابة للفكر الصهيوني وتنظيماته المختلفة، وذلك منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر واستمرت حتى تأسيس دولة إسرائيل. فدراسة الفترة من بعد الهسكلاه وقبل العالياه تعد محورية لفهم اشتباك المؤثرات الفكرية على آباء الحركة الصهيونية والتي مثلت ترابط عوامل الهسكلاه ومبادرات الاعتاق الأوروبية ثم استمرار معاداة السامية وأعمال العنف والتحول نحو فكرة تأسيس الوطن اليهودي في إطار الحداثة وممارسة الغرب للاستعمار، فدراسة تلك الفترة هامة لفهم المؤثرات المركزية على الفكر السياسي الصهيوني الحديث وكيفية استجابته لها والأطروحات المختلفة التي طورها المفكرين لتبرير القومية اليهودية صهيونيا.

ولكن ما مبرر اختيار المفكرين الأربعة؟ يعد اختيار هس، بنسكر، هرتزل وهعام مهما لعدة اعتبارات، فقد غلب على دراسات الصهيونية (وخاصة العربية) التركيز علي الممارسات الخاصة بالمنظمات الصهيونية المختلفة ثم لاحقا زعماء اسرائيل مع ذكر مركزي للنمساوي تيودور هرتزل أبي هذه المنظمات، غير أن دراسة هرتزل كمفكر مركزي ضروري حتى يمكن استكشاف مساحات القرب والاختلاف مع الثلاث مفكرين الآخرين فليون بنسكر روسي الأصل مثل استجابة يهودية لمعادة السامية أسبق على هرتزل وشابهت أفكاره أفكار هرتزل مما برر القول بأن بنسكر مهد لهرتزل بل وألهمه ، غير أنه وبجوار صياغة فكرة التوطين لدى المفكرين الأربعة انفرد كل منهم بتصور خاصة للقومية اليهودية ومبرراتها، وكذلك بتصور عن علاقة الجوييم الغربي بالمشروع الصهيوني ،وهو ما يعد استجابة هسكالية تتجاوز منطق التمترس اليهودي حول الذات أو "البقاء في الغيتو" .فإن ذهب الأربعة مذهب صياغة اليهودية كقومية لابد أن تسعى إلى دولةاوطن غير انهم اختلفوا حول موقع هذه الدولة، ومدى ضروريتها و أدوات تحقيقها ومبررات تحقيقها ودور الجوييم الوثني الغربي في تحقيق كل هذا، فكان هرتزل الأكثر اعتمادية بصهيونيته السياسية، ثم تباين الروسي ليون بنسكر عنه في منهجه التسللي التدريجي، ثم الروسي آحاد هعام الأقل اعتمادية ودولتية ورائد الصهيونية الثقافية والذي رأى في فكرة الدولة أنها غير ملحة بل مجرد مرحلة لابد أن تأتي لاحقا علي عملية التنشئة الثقافية اليهودية الضرورية. ثم الألماني موسى هس والذي رأي عملية تأسيس القومية اليهودية في أرض فلسطين بمثابة رسالة تعبر عن علاقة حضارية بين اليهود من ناحية (القدس) وحضارة الجوييم الغربي (روما) من ناحية أخرى. وتمثل اختيارات المفكرين تنويعة آخرى على استجابة اليهود الغربيين الروس "أي اشكناز روسيا" (بنسكر وهعام) في مقابل استجابة اليهود الغربيين من "اشكناز أوروبا" (هرتزل وهس) للمؤثرات في العالم الغربي ككل (روسيا وأوروبا)، وقد كان لمركزية الاشكناز في صياغة المشروع الصهيوني بالغ الأثر على تحيز هذا المشروع ضد السفارديم (اليهود الشرقيين) وهو ما سيتجلى لاحقا في تأسيس دولة إسرائيل.

وأخيرا للدراسة أهميات عدة علي المستوى النظري والعملي، فنظريا يعد استكشاف المكتبة العربية لمفكرين صهاينة في غاية الأهمية و المحورية في الفكر السياسي الصهيوني غير تيودور هرتزل يعد اسهام هام ، أضف على ذلك أن دراسة تبريرات المشروع الصهيوني لفكرة تأسيس الدولة تكشف عن بدايات الممارسة الاستعمارية الصهيونية ومبرراتها الهشة، كما أن لحظة بداية هذا المشروع والذي شمل صياغات عدة للدور الغربي بخلاف التقاليد اليهودية يعطي نظرة أوسع على الصهيونية كمشروع استعماري غربي ومدعوم من الغرب.

وعمليا ففي إطار العدوانات الإسرائيلية المختلفة –والتي عادة ما يتم تغطيتها بحملات دعائية تبرر زعم إسرائيل حقها في أرض فلسطين– يظل مهما معرفة كيف رأى أباء الحركة الصهيونية مبرر استعمارهم لدولة تخصهم ورؤيتهم لمدى أحقيتهم في فلسطين، ومدى أهمية فلسطين من عدمها للمشروع الصهيوني، أضف على ذلك تصوراتهم عن العلاقة مع الغرب وكيف نشأ الدعم الغربي في المشروع الصهيوني، وأخيرا اتاحة الفرصة للنظر للجدالات بداخل المشروع الصهيوني والذي دوما ما تصوره إسرائيل علي انه متجانس ويعبر عن الشعب اليهودي وليس مجرد اسهامات فردية تعبر عن استجاباتهم السياقية والمصالح المادية والسياسية حينها.

ثالثا: الإطار النظري: اختراع التقليد The Invention of Tradition

تنظر الدراسة لموضوعها من خلال إطار "اختراع التقليد" وهو الذي قدمه ايريك هوبسباوم وتيرنس رانجر في كتاب "اختراع التقليد"[32] Invention of Tradition وتقوم الفكرة الرئيسة على أن كثير من التقاليد التي يظنها الناس قديمة وممتدة ما هي الا تقاليد مستحدثة من الماضي القريب، ويعرفانها علي انها "محموعة من الممارسات المنظمة بصراحة أو ضمنيا وفقا لمجموعة من القواعد المقبولة ذات الطبيعة الرمزية أو الشعائرية والتي غرضها غرس مجموعة من القيم ومعايير السلوك عن طريق تكرارها وما ينطوي على هذا من ادعاء الاستمرارية مع الماضي أو بمعنى ادق مع الماضي المناسب لمخترعي التقليد" [٣٣]. على أن يتسم هذا الماضي بكونه بعيد جدا (أي سحيق) يعود لبدايات الزمن، غير أن القول بالاستمرارية يعد مصطنعا فهذا التقليد المخترَع يستجيب لمواقف مستحدثة بادعاء محاكاته لنفس المواقف التي حدثت في هذا الماضي السحيق. ويرى المؤلفان أن التقاليد المخترعة تلك ما هي الا محاولة للاستجابة للتغير المستمر في العصر الحديث عن طريق محاولة تأطير مساحات منظمة ومستقرة من الوجود الاجتماعي تتسم بالثبات في ظل التغير المستمر في العصر الحديث [٣٤].

ويفرق هوبساوم ورانجر ما بين التقليد tradition والعرف custom والقواعد الاتفاقية (أو الروتين) convention، ما يميز التقليد قديم كان أو مصطنع هو ثباته وعدم تغييره فماضيه يفرض ممارسات محددة ثابتة لابد من تكرارها، العرف في المقابل يتسم بالثبات ولكن يسمح بالتغيير، ودوره محاولة استيعاب التغيرات في المجتمع عن طريق إضفاء استمراريتها مع سابقات المجتمع، فالعرف يتميز باحترامه لتغير الحياة الاجتماعية ومحاولة التوازن معها، والروتين يتطلب التكرار غير انه لا يتسم بأي وظيفة رمزية أو شعائرية حتى لو بدت فيه تلك الوظائف عرضيا، ودوره تسهيل مجموعة من الممارسات والعمليات المطلوبة في المجتمع عن طريق تنميطها وتكرارها.

والأهم هو ما يميز التقاليد المخترعة عن التقاليد القديمة فالقديمة تتطلب الثبات في الممارسات ولا تسمح بأي مساحة لعدم الالتزام بها أما المستحدثة فعادة ما تتسم بالعمومية وسيولة ما تتطلبه من حقوق وواجبات وقيم، مثل تقاليد الوطنية والولاء والانتماء وما الي ذلك والتي تتسم باتساعها وقبولها أفكار كثيرة ومتعارضة[٣٥].

ولكن ما مبرر اختيار "اختراع التقليد" كبوصلة وزاوية للنظر في موضوع الدراسة والخاص بصياغة القومية اليهودية بداخل المشروع الصهيوني لدى آباء الفكر السياسي الصهيوني الأوائل؟ هناك اعتباران أساسيان في هذا الصدد، أولهما أن طبيعة الفكر السياسي الصهيوني في فترة مابعد الهسكلاه وقبل العالياه وبالأخص على إثر زيادة أعمال العنف ضد اليهود في أوروبا وفي إطار بحثه لمخارج من وضعه المأزوم بدأ يستدعي فكرة القومية بناءا علي التاريخ اليهودي ومحاولة زعم استمراريته مما يبرر أحقيته في وطن كبقية القوميات، الأمر الآخر هو أن عملية الاختراع تلك لم تكن واحدة في تفاصيلها بين مختلف المفكرين الإباء للحركة الصهيونية الحديثة مما يكشف طبيعتها التنازعية وكونها تمثل عملية مصطنعة لادعاء استمرارية الماضي الأنسب للجماعة، كما أن محاولاتهم المتباينة مثلت تباينا أيضا في توصيف هذا الماضي، وعلاقته بالحاضر و أدوات الربط بينهما. بجانب التأكيد على ما توصلت له غالبية الأدبيات حول القومية اليهودية كأساس للمشروع الصهيوني بإشارتهم لأثر الحداثة على إحياء القوميات، فكيف أثرت الظروف الحداثية ومابعد الهسكلاه علي إحياء تلك القومية وكيف كانت استجابة المفكرين المختلفين لتلك الظروف وكيف وازنوا بين حداثة الفكرة وادعاء ارتباطها بالماضي الثابت والسحيق.

رابعا: منهج الدراسة

تستخدم هذه الدراسة منهج تحليل المضمون إزاء التعامل مع الفكر السياسي للمفكرين الصهاينة الأربعة، وتعتمد الدراسة علي تحليل المضمون في صورته الكيفية الموجهة directed content analysis وذلك لمناسبة ذلك النوع من التحليل الكيفي لإمكانية استخدامه في إطار افتراضات نظرية كبيرة يتم البحث فيها بداخل فكر المفكرين وذلك لاستكشاف طبيعتها[٣٦].

ويختلف تحليل المضمون الكيفي عن الكمي في حاجة التحليل الكمي لتجميع المفردات للخروج بمعني من المفردات المتكررة في النص، بينما الكيفي فهو لا يبحث عن تكرارات المفردات في النص و لكن يبدأ انطلاقا من القضايا والافتراضات النظرية لفهم تجلياتها في النص وكيفية صياغة معناها. ولهذا فالتحليل الكيفي الموجه سيستهدف بالأساس أعمال المفكرين الأربعة والمعنية بقضية صياغة القومية اليهودية كأساس للمشروع الصهيوني وأحقيته في الوطن وصياغته لدور الجوييم الغربي إزاء ذلك.

هذا وإن اتسم التحليل الكمي بتقليل دور الذاتية في التحليل غير أن الكيفي يعد أعمق وأرحب ويتيح للباحث مساحة للبحث في القضايا والمعاني وتشابكاتها النظرية في فكر المفكر، فهو يمكن من القراءة المعقلة لأجل فهم مقاصد النص وليس مجرد هيكل تكراراته[٣٧].

هذا و سيعتمد الباحث –في استخدامه للاقتراب الموجه directed content analysis– على نصوص معينة عند المفكرين الأربعة والتي تعد كاشفة لفهم قضية القومية اليهودية وامتداداها ودور الجوييم الغربي في مشروعها وكيف تأثرت تلك الأفكار بسياق مابعد الهسكلاه وكيف مهدت للعالياه أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين. وهذه الأعمال هي:

١- بالنسبة لهرتزل

الدولة اليهودية[٣٨]، وخطاب المؤتمر الصهيوني الأول "[٣٩]

٢- بالنسبة لآحاد هعام

الإحياء الروحاني[٤٠]

٣- بالنسبة لبنسكر

الانعتاق الذاتي[٤١]

٤- وبالنسبة لموسى هس

روما والقدس[٤٢]

وسينقسم البحث وفق هذا لمناقشة أربعة موضوعات أولها : التمهيد للمفكرين وسياق صياغتهم لفكرة القومية اليهودية، ثانيها: كيفية قراءتهم للوضع اليهودي وكيفية صياغتهم للقومية اليهودية، ثالثها دور الجوييم الغربي في مشروع القومية وأدوات بناء القومية، وأخيرا مناقشة إسهامات تلك المفكرين سويا.

وقد كان أمام الباحث طريقان لمناقشة موضوع البحث أولها أن يقسم بحثه وفقا لموضوعات وبداخل كل موضوع يقدم من اسهام كل مفكر من المفكرين في الجزء الذي قدمه بصدد هذا الموضوع، والطريق الآخر هو عرض كل مفكر قائما بذاته ومناقشة موضوعات الدراسة بداخل فكره.

لا ينكر الباحث أن الأسلوب المقارن يتطلب من الباحث أن يناقش البحث موضوعات وبداخلها أجزاء تخص تلك الموضوعات مشتقة من فكر المفكرين. ولكن لرغبة الباحث أن يقدم هؤلاء المفكرين للمكتبة العربية لما في ذلك من أهمية وكذلك لتسهيل فهم هذا الفكر على غير العارفين به، رأى أن دواعي تسهيل استيعاب مفكرين جدد تتطلب شرح كل مفكر قائما بذاته وأن يتم عرض موضوعات البحث المطلوبة بداخل كل مفكر ،بحيث ينقسم الفكر السياسي الذي سوف نقدمه عن كل مفكر بناءا علي الموضوعات المطلوب مناقشتها في البحث. أو بمعنى آخر يرى الباحث أن مناقشة كل مفكر قائما بذاته وبداخله الموضوعات التي يحاول البحث الإجابة عليها يعد أيسر لفهم هؤلاء المفكرين وخصوصا للقراء حديثي العهد بهم عن أن يتم تقسيم البحث كموضوعات و بداخل كل موضوع جزئية صغيرة من فكر المفكر، وهو ما سيتطلب من القارئ أن يقوم بتركيب تلك الجزئيات في عقله للوصول لصورة عامة عن المفك. وهو الأمر الذي قد يكون صعبا علي غير المعتادين على هذا الفكر. كما أن أهمية

وضرورة التعرف بسهولة على هذا الفكر بسبب الظروف الضاغطة التي يمر بها حاضرنا نظرا لممارسات الكيان الصهيوني يتطلب من الباحثين تيسير الطرق التي من خلالها يمكن فهم آباء هذا الكيان الصهيوني بأقصى قدر ممكن ومسموح.

خامسا: الفكر السياسي الصهيوني الحديث : قضية القومية ودور الجوييم

تاريخيا يمكن ترتيب المفكرين كالتالي : موسى هس (١٨١٢-١٨٧٥)، ليون بنسكر(١٨٢١-١٨٩١)، آحاد هعام (١٨٥٦-١٨٢٧) و تيودور هيرتزل (١٨٦٠-١٩٠٤) ، غير أنه ولدواعي كون فكر آحاد هعام يعد بنسبة كبيرة ردا علي طروحات هرتزل، ولكون هعام ولد قبل هرتزل ولكن مات بعده ومن ثم عاصر تطورات أكثر للفكرة الصهيونية فسوف يتم مناقشة آحاد هعام بعد هرتزل وليس قبله.

١- موسى هس (١٨١٢-١٨٧٥): القومية اليهودية كفاعل حضاري

أ- التنشئة والسياق

بداية بموسى هس، رائد الصهونية العمالية، ولد هس في بون بألمانيا وتركاه والداه ليتعلم تعليما يهوديا دينيا علي يد جده الذي كان رابي rabbi(حبر) يهودي.وبوصول هس لسن النضج تخلي عن اهتمامات اليهودية و في ظل شيوع نظريات الجدلية التاريخية علي يد هيجل تحولت اهتماماته نحوها. وقد انضم هس للمناضلين والمفكرين الاشتراكيين كارل ماركس و فردريك انجلز وأعمالهما الفكرية وممارساتهما الثورية، وقد كان لتورط هس في ثورة عام ١٨٤٨ في المانيا سببا في الحكم عليه بالإعدام، كما ان اختلافه مع المادية الفجة لماركس واهتمامه بالابعاد الروحانية سببا آخر في افتراقه عن ماركس وانجلز[٤٣].

وقد مر هس بفترة اعجاب بالحضارة الغربية وديانتها المسيحية[٤٤]كما أن فكره يعبر على أن تاريخ الإنسانية وتطوراتها يعد موازيا لتاريخ الغرب، فأفول الدين في الغرب بالنسبة له يعد أفولا للدين في العالم وشيوع القومية كنزعة صاعدة في الغرب يعني أن العالم سيتجه نحو القومية، وقد اتسمت أراء هس بكونها اشتراكية أخلاقية. ويعد فكره الصهيوني أميل لدراسة العلاقات الحضارية بين الأديان الموجودة بداخل الحضارة الغربية، ويعد تحول هس عن الاشتراكية الجدلية دلالة على احباطه بعدم استيعاب الاشتراكية الثورية لليهود. وكونه من يهود الغرب الأوربي جعله يميل لاعتبار تاريخ اليهود متقاطعا مع التاريخ الغربي، ولكن كيف صاغ هس فكرة القومية اليهودية كأساس للمشروع الصهيوني العمالي؟ يبدو ذلك واضحا في كتابه "روما والقدس" والذي كان عنوانه الأول "حياة إسرائيل".

ب- قراءة المفكر للظرف اليهودي وصياغته للقومية اليهودية

يفتتح موسى هس قراءته للسياق حوله بالسخط من ممارسات اليهود في أوروبا وكيف انهم وبرغم من مضي ٢٠٠٠ سنة على وجودهم لكنهم بلا جذور ،يتمسحون بالغرب وينكرون عن انفسهم "الجنسية اليهودية"[٤٥]، مما يوحي بإيمان هس العميق بالقومية اليهودية، ويدرك هس بأن السياق العالمي والاوربي وكذلك الألماني الضيق يفوح

بكراهية اليهود وبرغم ذلك يسعى اليهود للاندماج مع الأوروبيين بل وتغيير ملامحهم وشكلهم ليناسبوهم غير أن هس يرى أن الاندماج والإصلاح (فيما يسمي حينها بالإعتاق التالي علي الهسكلاه) لن يفتح ابواب المجتمع لليهود[٤٦] فهم دوما في وجود استثنائي على هامش الحضارة الغربية. ومن هنا تبدو قراءة هس للسياق من حوله قراءة المغترب عن سياقه والذي لايوحي بأي أمل في قبول هذا السياق.و في المقابل يراهن هس علي الجنسية اليهودية او الانتماء اليهودي المتجذر لدى اليهود ولكن بناء هذا الانتماء و التعويل عليه يتطلب صياغة للقومية التي سوف ينبني عليه هذا الانتماء وهنا حديث هس عن القومية اليهودي كحتمية تاريخية فتأثر موسى هس بالفكر الاشتراكي الجدلي وبرغم تخليه عنه إلا ان لغته لا تخلو من الحتميات واستدعاء التناقضات الممهدة للتغيير على طريقة ماركس وانجلز .

يشير موسى هس إلى أن نشوء القومية في العالم هي حتمية تاريخية وأن اليهود دونا عن بقية الشعوب والأمم دوما ما تجذر فيهم هذا الوعي القومي حتى وقبل صعود وازدهار القومية على إثر الثورة الفرنسية. ويتنبأ موسى هس بحتمية بعث ونهوض الأمم خاملة الحضارة، ولكن الانتقال من عصر العالمية المسيحية لعصر ازدهار القوميات والشعوب وخصوصياتهم لم يحدث دون تحولات، فالمسيحية (ويضم عليها الإسلام) بما فيهما من عالمية لعبا دورا للقضاء علي الثقافات القديمة بطابعها القومي، ولكن بحلول الثورة الفرنسية يشهد العالم تحولا نحو ازدهار القوميات وهو ما صاحب انهيار الايمان بالمسيحية في أوروبا و انزوائها لانها لم تعد مناسبة لروح العصر الذي تعد القومية سمته الرئيسية ويرى موسى هس أن المرحلة القومية تمهد للعصر المشيحاني في والذي سيظهر فيه المسيح في آخر الزمان كملك لأمة اليهود بين الأمم، فقدوم المسيح يتطلب أن يكون العالم أمما وقوميات[٤٧].، وليس عالم يتسم بالعالمية والعمومية كالتي أضفتها المسيحية. ويبدو هنا واضحا دور القوميات كخطوة على طريق المشيحانية اليهودية وهو ما سيوضح تصور صهيونية هس لدور الجوييم في مشروعه الصهيوني، وقد رأى هس أن اليهود المقيمين على التخوم الحضارية بين الشرق والغرب في روسيا وبولندا وبروسيا وتركيا هم الأكثر وعيا بفكرة القومية والمحافظين عليها[٤٨].

ولكن هل التمترس حول التقاليد اليهودية، أي الانزواء بداخل اليهودية الارثوذوكسية هو الطريقة المثلى للتعامل مع تلك النقلة التاريخية القومية؟ بالنسبة لهس لا، ليس الانزواء نحو الغيتو و ليس الاندماج كليا في المجتمعات المضيفة هو الحل و لكن النهضة القومية للشعب اليهودي[٤٩]، أي صياغة الانتماء اليهودي كقومية بين القوميات، فاليهودية هي دين المستقبل لامتلاكها وقبل الجميع ميولا قومية وليست عالمية، ميولا تؤكد علي تفرد الشعب وليس عالميته، فمن لا يؤمن بالقومية ويؤمن في المقابل بالتنوير والعالمية والاندماج في عموميات سينهار كما انهارت المسيحية بعمومتيها في أوروبا، فالسعي نحو العمومية والعالمية يتجاهل التناقضات القومية الكامنة في اللحظة التاريخية. ولكن السؤال؟ إذا حديث هس هو حديث حول نشوء الخصوصيات القومية من رحم عموميات العالمية والتنوير، فهل ستنشأ علاقة حضارية بين الخصوصيات القومية– خاصة وهو القائل بأن

المستقبل هو بعث الأمم حاملة الحضارة؟ وهنا تبدو فكرة الرسالة الحضارية للقومية اليهودية وموقع الجوييم عموما فيها و بخاصة الجوييم الغربي (العالم الوثني الغربي) منها، وأدوات تحقيق تلك الرسالة الحضارية.

ج–موقع الجوييم الغربي من مهمة القومية وأدواتها

لا يمكن فهم تصور موسى هس لعلاقة الجوييم الغربي بالقومية اليهودية دون الولوج في تصوره للرسالة الحضارية للقومية اليهودية أولا ثم موقع الجوييم عموما منها وبالأخص الجوييم الغربي منها وأدوات تحقق تلك الرسالة . ينطلق موسى هس على أن تفرد اليهودية هو جمعها ما بين القدرة علي تقديم تصور للحياة وللأخلاق في الآن ذاته، أو بمعنى أصح امتلاك اليهودية لقواعد تنظم الحياة العامة والأخلاقيات الخاصة ويرى هس أن المسيحية ثم التنوير أديا للانفصال ما بين قواعد الحياة العامة والأخلاقيات الخاصة، فلم يعد ينظمهم نفس المنظومة الفكرية، وهو ما نسميه حاليا بالعلمانية فالمسيحية أصبحت ديانة مجال خاص و لا تمتلك تصور عن كيفية إدارة المجال العام، و التنوير العكس، الذي يملك تصورات عن كيفية إدارة المجال العام وليس الأخلاق الفردية. فكأنما باللغة الإسلامية يرى موسى هس أن رسالة اليهودية "دين ودنيا" أو "دولة ودين"، وحاجج موسى هس أن تلك الميزة مهمة للعرق الألماني ولحضارة الغرب، بالنسبة للعرق الألماني امتلاك اليهودية لهذه الميزة سيساهم في ترقية العرق الألماني (لكون موسى هس ألمانيا) ومن ثم يعزز تقدمه ولا يقع في هذا العيب الذي خلفه التنوير[٥٠]. ولكن قيام اليهود بذلك الدور لا يمكن في إطار تشتتهم عالميا، فممارسة وحدة الأخلاق والحياة لا تتم إلى في داخل دولة لها مؤسسات سياسية قائمة، أي من خلال قيام الدولة اليهودية[٥١]. ويعتقد هس أن السياق العالمي خصب ومتهيئ لتلك اللحظة فهو يرى أن الطبيعة مآلها تمييز الأنواع ،وبالنسبة للبشر هو تمييز الشعوب أي قيام القوميات[٥٢] وأن العالم متهيأ للرسالة الحضارية اليهودية من خلال حفر قناة السويس ومد خطوط السكك الحديد بين أسيا وأوروبا، فما على اليهود الآن سوى إقامة دولتهم، فالعبد في التفكير والرب في التدبير على حد وصف هس (Man Proposes, God Disposes)[٥٣].

وفي حديثه عن دور الغرب ووسائل تحقيق الدولة اليهودية يقول هس بأن المطلوب من اليهود في لحظته التاريخية الإبقاء علي أمل إقامة دولتهم في أرض الأجداد بينما تتهيأ ظروف الشرق، وهو يوحي هنا بضعف وتحلل الدولة العثمانية[٥٤]، وقد أشار هس بأن فرنسا ستكون مساعدا جيدا في هذا الصدد لتأسيس مستعمرة يهودية من السويس للقدس ومن ضفاف الأردن للمتوسط، وذلك لأن مشاكل اليهود في فرنسا جعلتهم يدفعون لمناقشة المسألة الشرقية المتجددة[٥٥]. وقد رأى أن أوروبا ستسهل لليهود شراء الأراضي وأن تركيا يكفيها الذهب مقابل الأرض[٥٦]، ولكن ما الرسالة الحضارية في كل تلك المساومات السياسية؟

يرى هس أن اليهود سيكونون بمثابة حاملي حضارة الغرب للشرق ووسطاء بين أوروبا وآسيا وهم من سيفتحون الطريق للهند والصين (يشير هنا الي انهم سيكونون بمثابة من يفتح الباب للغرب ويسهل طريقهم للهند والصين) وذلك حتى يمكن "إلقائهما في الحضارة" علي حد تعبير هس[٥٧].كما أن المسيحيين سيسمحون باحتلال فلسطين ولكن بشرط واحد هو عودة عقيدة الذبائح اليهودية للقدس أي بعودة اليهود كشعب وقومية متميزة في

القدس، والذي يتطلب استقلالهم القومي في فلسطين وذلك حتى يمكن للمسيحيين تحقيق نبوءة عودة المسيح[٥٨]. ولكي يحدث كل هذا وليكون اليهود قادرين علي التعبير عن رسالتهم وليكون وجودهم منتجا وعملهم منتجا لابد لهم من ملكية الأرض وأن تكون هجرتهم تدريجية لفلسطين[٥٩].

وهنا يبدو واضحا الاشتباك الواضح بين الصهيونية كمشروع استعماري غرضه تسهيل الاستعمار وكمشروع عنصري غربي يقوم علي ما يسمى بمهمة الحضارة الغربية Mission Civilisatrice ، فاستعمار الأمم والاستيلاء علي أرضها دوره تسهيل مصالح استعمارية وفتح أبواب السيطرة عليها، وذلك تحت شعار "إلقاء الشعوب في الحضارة" كما أنه بمثابة تكرار لأسلوب حل المشكلات الغربية بنقلها خارج الإطار الغربي– فحل مسألة اليهود في أوروبا يكون بدعمهم للانتقال خارجها.

ولكن يهمنا هنا كيفية صياغة موسى هس لدور الجوييم الغربي إزاء التفرد اليهودي، فموسى هس جعل من امتلاك اليهود لإمكانات قومية جاهزة بمثابة تحقيق لروح العصر وأن هذا التحقق لكي يتم سيتطلب من الغرب إتاحة قيام دولة اليهود وفي ذلك مصلحة حضارية متبادلة تتمثل في نقل اليهود مشعل الحضارة الغربية للشرق بجانب تسهيل مصالحه الاستعمارية وفتح طرقاته، وعلى مستوى فكري تقديم وحدة الأخلاق والحياة للحضارة الغربية كما والسماح للمسيحيين بتحقيق نبوءتهم عن قدوم اليهود بعقيدة الذبائح للقدس حتى يعود المسيح (وهنا يمكن الوقوف على مثال للمبررات بين اليهودية الصهيونية والمسيحية الصهيونية). فالجوييم الوثني يمكن أن يقوم بمهمة لصالح القومية اليهودية بناءا علي تبادل مصالح قومية وحضارية واستعمارية.

٢- ليون بنسكر(١٨٢١-١٨٩١): الدولة ملجأ للأمة الشبحية

أ- التنشئة والسياق

أما فيما يخص ليون بنسكر فهو من آباء ما يسمى بالصهيونية العملية والتي تتسم بأمرين أساسيين أولهما عدم التمسك بفلسطين (صهيون على حد تعبيرهم) كملجأ فوري يصبح وطنا قوميا لحل معاناة اليهود، فأي ملجأ سيكون مناسبا، والأمر الآخر موافقته علي الاحتلال التدريجي لفلسطين أو لهذا الملجأ عن طريق ما يسمي بالتسلل أو الهجرة التدريجية بتشكيل مجتمعات صغيرة تتسع شيئا فشيئا[٦٠]. وليون بنسكر هو طبيب روسي نشأ في أجواء تعد نموذجا للاستجابة الكلية لفكر الهسكلاه والاندماج اليهودي في المجتمع، فقد تلقي تعليما روسيا اندماجيا وآمن بأن روسيا في عصره ستتحول كبقية أوروبا نحو الملكية الدستورية، وكان أبوه روسيا مستنيرا وقد كرم القيصر نيكولاس بنسكر لدوره الطبي الهام في حرب القرم. ودلالة علي اندماج بنسكر الكبير أنه أصبح من أهم مؤيدي حركة الترويس Russification–rusifikatsiya التي دعت لتكون الروسية لغة حياة اليهود ولغة دينهم أيضا[٦١].

غير أن طموحات بنسكر الهسكالية احبطتها صدمة عنيفة وهي أعمال العنف الواسعة التي واجهها اليهود الروس على إثر اتهامهم بالتورط في مقتل القيصر الكسندر الثاني (مذابح روسيا كما يسمونها ١٨٨١) والتي وفقا لبنسكر مثلت نقلة فارقة عما سبق من اضطهاد لليهود، فاليهود مروا بنفس احداث العنف الواسعة من فترة ليست

بالبعيدة عام ١٨٢١ ولكن ما ميز هذه المذابح عن سابقاتها أنها لم تكن مجرد غوغائية متطرفة مارستها الدهماء ولكنها حدثت في إطار مناخ عام حفزه كبار المفكرين والإعلام كما انها كانت في ظل رأي عام صحفي ومثقف ممهد لها[٦٢].

وقد رأى بنسكر في هذا الحاجة لعلاجات جديدة بدأت بسفره لوسط وغرب أوروبا وانتهى بضرورة أن يتركز اليهود في دولة، قدم فكرتها في كتيبه الأشهر "الانعتاق الذاتي "auto-emancipation وأن هذا المسعى لابد ألا ينشغل بعواطف الأرض المقدسة والعودة لصهيون، إذا تحقق الأمر في فلسطين سيكون أفضل ولكن الأهم النجاة من المعاناة في أي ملجأ لا يكون فيه اليهود أقلية. وقد ووجه بنسكر بنقد شديد من طرفي الجماعات اليهودية الارثوذوكس والمستنيرين[٦٣]، فالفريق الأول وجدوا فيه ملحدا لا دينيا والثاني وجده خائنا لمبادئ الإنسانية والتنوير، لكن إسهام بنسكر الحقيقي هو أن أفكاره تعد بشكل أو بآخر نسخة مصغرة وسابقة على الطرح السياسي لتيودور هرتزل المؤكد علي أهمية دولة يكون بها اليهود أغلبية كحل لمعاناتهم وأن يقوم ذلك على اتفاقات سياسية تدعمها القوى الكبرى وأن يتم تنفيذ ذلك وفقا لمنظمة يهودية تجمع قادة اليهود وممثليهم .وقد تحقق ذلك لما أنشا بنسكر نواة أول منظمة صهيونية عملت علي جمع الأموال لهجرة اليهود لفلسطين وسماها حبات صهيون (هوفيفي صهيون) أو أحبة صهيونHovevei Zion /Hibbat Zion، وذلك رفضا منه للاعتماد على النذر اليسير الذي كانت تكرسه أموال تبرعات اليهود لفقرائهم في القدس بنظام ما يسمى بالهالوكا (الحالوقاة) חלוקה Halukka، [٦٤]كما أن بنسكر يعد أيضا أساس الفكر الصهيوني الحديث في شرق أوروبا، هذا ويقدم بنسكر خلاصة فكرته عن ظروف اليهود وبناء القومية وأدواتها في كتيبه الأشهر الانعتاق الذاتي نداء من يهودي روسي لشعبه.

ب- قراءة المفكر للظرف اليهودي وصياغته للقومية اليهودية

يبدأ بنسكر في دعوته بتوصيف وضع اليهود مؤكدا أن قضية اليهود ليست بقضية نظرية تقع في نطاق النقد والتأملات ولكنها قضية عملية مفادها أن اليهود غير قابلين للدمج ولم يعد ممكنا تجانسهم مع الآخرين، ولا يبدو أن أطروحة ذواب القوميات ستتحقق عما قريب. فالواقع أن هناك قانون دولي يدير علاقة بين دول قومية ممثلة لقوميات، مشكلة اليهود أنهم لا أرض أسلاف لهم ولا مركز يمثل قوة جذب وبالتالي لا حكومة ولا ممثلين[٦٥]. وهنا يبدو واضحا انكار بنسكر لفكرة وجود أرض اسلاف أو ارض ميعاد لليهود مما برر اتهاماته باللادينية، وقد رأى بنسكر أن اليهودي دوما ضيف وليس أبدا في بيت أو منزل[٦٦]، وأن شعوب العالم لا تتعامل مع أمة يهودية ولكن مع يهود[٦٧]، فلا يشعر اليهود بما يحتاجونه من طابع قومي. هذا الطابع القومي يتحقق فقط بالعيش في بلد واحد تحت سلطة واحدة وهذا لا يمكن أن يتم تطويره في الشتات. وما زاد الأمر سوءا هو تخلي اليهود عن هويتهم وسعيهم للكوزوموبولتانية (الكونية العالمية) فنسوا ما يسمه بنسكر "بجنسيتهم" (أو تفردهم القوميnationality) وبرغم ذلك لم ينالوا المساواة، فتدهور أحوالهم سببه عدم إحساسهم بطابعهم القومي وعدم رغبتهم في الاستقلال.[٦٨]

ويقدم بنسكر بشكل عميق توصيفه للوضع اليهودي بين الأمم قائلا بأن اليهود أمة ميتة تعيش بين الأمم الأحياء فهي أمة شبحية تشارك في المجتمع ولكنها بلا أرض وبلا رابطة جامعة[٦٩] .ويأخذ بنسكر مجازه الخيالي

ليجعل منه سببا لأزمة واقعية بقوله أن الخوف من الأشباح أدى للتحيز ضد اليهود أو رهاب اليهود على حد تعبيه (جوديوفوبيا Judeophobia) وهو مرض نفسي توارث منذ ألفي سنة (يشير لميلاد المسيحية)[٧٠] وهذه الكراهية كراهية افلاطونية مطلقة لكل اليهود ويحال لها أصل كل الأذي، فاليهود متهمون بقتل المسيح، شرب دماء المسيحيين، تسميم الآبار، أخذ الربا واستغلال الفلاحين وهي التهم التي راها بنسكر بلا أساس من الصحة.[٧١]

فاليهودي الحائر التائه لا يرتاح، كذلك معاداته لا تنتهي، فاليهود ليسوا شعب الله المختار، بل الشعب المختار للكراهية[٧٢]، ويبدو هنا واضحا كيف أن هسكالية بنسكر جعلته يتخفف من قداسة المفاهيم اليهودية سواء أرض الميعاد أو شعب الله المختار.والحل في وجهة نظر بنسكر ليس في تقديم الاطروحات النقاشية والنقدية فهذا لن ينهي المعاداة كذلك لم يعد فعالا السعي لمساواة اليهود بأقرانهم من المواطنين في الدول غير اليهودية. فاليهودي له وضع استثنائي سلبي فهو ليس من أهل البلد وليس أجنبي بل غريب، هو ليس صديق وليس عدو بل دخيل لأنه بلا وطن، فالاجنبي الضيف له حق الضيافة والترحاب، والمواطن له حق الانتماء وأن يسعه وطنه، لكن اليهودي ليس هذا ولا ذاك بل هو أشبه بالشحاذ أو اللاجئ، فاليهود أغراب بلا ممثلين لأن لا وطن ولا أرض لهم، كما أن القانون العام لا يسري عليهم لأنهم أغراب وبالرغم من ذلك هناك قوانين خاصة تشرع استثناءا عليهم.[٧٣]

ولهذا يرى بنسكر أن وضع اليهود الاستثنائي يبرر دعوتهم للانعتاق تماما مثل الزنوج والنساء برغم كون اليهود على حد وصف بنسكر أرقى منهم. ولكن هذا الانعتاق لابد أن يكون ذاتيا دونما اعتماد غلي الغير، فالاعتمادية علي الغير كرست عدم اندماج اليهود[٧٤]، وإبقاء اليهودي كغريب شحاذ لابد له بالانتماء لأرض ليس ارضه، برغم كون اليهودي دوما أفضل في أي منافسة. خلاصة الأمر أن اليهودي وفق وصف بنسكر رجل ميت للأحياء، رجل غريب متشرد لأهل البلاد، شحاذ لأصحاب الأملاك، مستغِل للمليونيرات، ورجل بلا ارض وبلا طبقة ومكروه[٧٥]، ولكن ما العمل إذن؟

في صياغته للقومية يرى بنسكر أن الحل في استعادة الطابع القومي لليهود، فلابد ألا يعتمد على انتظار تغير الطبيعة البشرية للأفضل ولكن لاستعادة اليهود لشعور احترام الذات[٧٦]، ولكن كيف؟ فاليهود قطيع بلا راع وأقصى لفتات الرعاية التي ممكن أن ينتظروها هي أن يرعوا كالماعز في اسطبلات الخيول وفق المثل الروسي. ويحدد بنسكر حله بـ(طلب الاستقلال)، لكنه لا يوضح عندما يقول "اعطونا الاستقلال" من المخاطَب بالتحديد؟ ولكن يبدو أنه يخاطب القوى الأوروبية الكبرى ، كما ينادي بإعطاء اليهود حق سيادة مصيرهم علي أي قطعة أرض مثل التي أعطوها للصرب ولأهل رومانيا (مشيرا لما تم عمله مع تلك الدول حين انفصالها عن الدولة العثمانية) وبعد ذلك لكم حرية حب أو كراهية اليهود، فكأنما يشير بنسكر إلى الدعوة لإعطاء اليهود قطعة من الدولة العثمانية مثل نظرائهم الصرب والرومانيين[٧٧]، وقد رأى أن اليهود الروس والرومانيين يشعرون الآن بتأجج الوعي تجاه فلسطين[٧٨]، غير أن البقية يظنون أن وضعهم هو عقاب من الله، بينما القوميات من حولهم تنهض وتستقل، لذا لابد من توجيه قوة الأمة اليهودية الأخلاقية لإنشاء القومية وعدم ترك مصيرهم في يد غيرهم[٧٩].

فالتشتت ليس قدرا إلهيا ولا مهمة إلهية على اليهود قبولها، وهنا يبدو مجددا تخفف بنسكر من المفاهيم التوراتية الكبرى الخاصة بالشتات اليهودي كقضاء إلهي. فالكل بالنسبة له يتحول للقومية ولن يتم رفض طلبهم (ولكن من المخول بالرفض؟ لم يوضح ولعله يقصد نفس جماعة المخاطَبين) فمبررات القومية كثير كما أنهم سينالون تعاطف كارهيهم فلابد في كل الأحوال الضغط على السياسة الدولية لتحقيق طلب الدولة اليهودية [٨٠]. ويبدو أن تلك الفكرة في إطار حركة الصرب والرومانيين تشير لأهمية ضغط القوى الدولية علي الدولة العثمانية، وما يبرر قوله بأن طلب اليهود لم يرفض هو أنه سيمكن الدول من نقل فائض اليهود لمكان آخر،ومن ثم ستقبل الدول هجرتهم جماعيا في دولة ووطن خاص لهم. ويعد فكرة الضغط الدولي وإعطاء الاعتبار لأهمية الدبلوماسية لأجل تأسيس الدولة اليهودية هو مبرر القول بأن بنسكر هو الأصل الذي انبنى عليه فكر هرتزل برغم انكار هرتزل قراءته لبنسكر وقد تكون تلك فكرة شائعة آن ذاك لكن هرتزل أعطاها المجهود اللازم والخطة المناسبة لتنفيذها.

ج–موقع الجوييم الغربي من مهمة القومية وأدواتها

بالتأكيد فإن حديث بنسكر عن مخاطبة القوى الدولية والضغط على السياسة الدولية يحيل للحديث عن الأدوات وموقع الجوييم الغربي منها. فمبدئيا يقتنع بنسكر بأنه من الضرورة التخلي عن طموحات استعادة مملكة يهوذا أو عن استعادة العلاقة مع أي مكان انقضت علاقة اليهود معه بشكل عنيف، فالهدف ليس أرض مقدسة ولكن أرض كبيرة تكفي اليهود لا سيد عليهم فيها سواهم ،ويمكن لليهود أن يأخذوا الفكرة الإلهية إليها وكتاب الله وهذا فقط سيجعلها أرضا مقدسة، وليس وجودها عند قدس الأردن هو الذي يجعلها مقدسة[81] .وقد يكون ذلك التساهل الذي يتعامل به بنسكر مع مفاهيم اليهودية سببا ليس فقط في اتهامه باللادينية ولكن لاعتباره أبو الصهيونية العملية. ويبدو جليا كيف أن الهسكلاه التي تأثر بها بنسكر وأبيه جعلته ليس فقط يتعامل بتساهل مع تلك المفاهيم ولكن جعلته يتعامل بشكل عملي مع أزمة اليهود ويراهم كقومية كبقية القوميات وليس شعبا مختارا له مهمة إلهية أو لابد أن يعاني من قدر إلهي. قد تعود الأرض المقدسة لاحقا ولكن المهم الآن أي دولة.

وبنظرة تاريخية وسياقية أثرت على بنسكر كما أثرت علي أقرانه من رواد الفكر الصهيوني رأى أن التاريخ في صفهم وذلك لأن العالم كله يتحول لقوميات ولكن ما ميز تلك القوميات أنها تعيش علي أرضها وتجمعهم لغة واحدة[٨٢]، ولكن مشكلة اليهود انهم لا يمتلكون موسى (كنموذج قائد) ولكن يمكن التعويل على حماس الأصدقاء المحبين والمتحمسين للغرض اليهودي[٨٣]. والبداية هي جمعية تمثل مؤتمر قومي يعبر عن مصالح اليهود ويجمع زعمائهم ويكون مفرخة لممثليهم الذين لابد أن يكونوا من أهم رجالات اليهود كرجال المال والسياسة والإعلام والعلوم،يعملون لأجل تأسيس وطن آمن لفائض اليهود الذين هم بمثابة بروليتاريا وعبئ على السكان الأصليين[٨٤].

ويمكن هنا التقاط فكرة قدمها بنسكر ستؤثر لاحقا على هرتزل وهي ابتزاز مفكري الصهيونية للحكومات الأوروبية باعتبارهم اليهود كبروليتاريا ثورية محتملة وعبئ علي مجتمعاتهم مما يبرر دعم تلك الحكومات لجهود إعادة توطينهم في مكان آخر ، وهذا الوطن لابد أن يكون مبنيا على دعم مالي قوي وليس تبرعات الحالوقاة للحجاج

التي تجعلهم غرباء في أرض غريبة[٨٥]. والأرض المختارة لابد أن تكون منتجة وذات موقع جيد وتكفي لإيواء الملايين من اليهود، أرض ممهدة ومستمرة ، ستكون الأرض ملكية وطنية غير قابلة للنزع[٨٦]. وهنا يبدو إشارة بنسكر لعدم رغبته أن يعيش اليهود في مستوطنات معتمدة علي دعم فردي من رجال الاعمال الأثرياء كمستعمرات البارون موسى هيرش في الارجنتين ،ولكن إقليم دولة ملكا لها وليس لأفراد. وتحديد المكان هو أمر جلل تختص به المنظمة المزمع انشاءها، أصحاب رأس المال سيشترون الأرض ولكنها ستكون ملكية عامة ، يمكن أن تكون تلك الأرض في أمريكا الشمالية أو في بشالق تركية وأن تكون الأرض مقبولة من الباب العالي ومن القوى الأخرى كدولة محايدة، وستلعب المنظمة المزمع انشاؤها دور ضمان هذا التأييد لأنه لا مفر من دعم الحكومات لهذا المشروع ولابد أن يحدث هذا الآن أو لن يحدث ابدا[٨٧].

وينهي بنسكر حديثه قائلا ساعد نفسك ليساعدك الرب.[٨٨] وهنا يمكن فهم بنسكر وكذلك موسى هس في إطار الفكرة الثورية التي أحدثها الحبران الرابي الألماني كاليشر (زفي هيرش كاليشر Zvi Hirsch Kalischer (1795 –1874) والرابي البوسني يودا الكالاي Rabbi Judah Alkalai (الرابي يهوذا القلعي ١٧٩٨–١٨٧٨) في الفكر اليهودي وكانت نواة للفكر الصهيوني الحديث وهي فكرة أن المعاناة ليست قدرا إلهية ولابد من مساعدة الذات وتأسيس وطن قومي لليهود بالإرادة الفردية[٨٩] وليس انتظارا للتحقق بواسطة الإرادة الإلهي في العصر المشيحاني، في تكرر ديني للصبغة الرأسمالية الخاصة بمساعدة الذات self–help وعدم قبول الفقر كقدر وهي التعديلة الفكرية التي أحدثها كالفن علي المسيحية[٩٠]، وقد التقطتها الرأسمالية لدعم أساسها الفكري. وكأن الفكرة بدأت دينية ثم تحولت للاقتصاد ثم عادت مرة أخرى للدين .وأصبحت ليست فقط نواة للرأسمالية ولكن أيضا للصهيونية.

وهنا يمكن استشفاف موقف الجوييم في مشروع بنسكر الصهيوني– يبدو بنسكر يتراوح بين الاعتمادية الكلية والانعتاق الذاتي– تلك الازدواجية التي تميز سياقه كيهودي روسي وكمستنير سابق، فهو يعول علي تأجيج مشاعر الانتماء اليهودي ولكن يراهن علي دعم القوى الكبرى، يسعى نحو بناء التنظيمات الصهيونية لكن يدفع نحو الصهيونية والملاءمات الدبلوماسية التي تصل حد اعتبار الدولة المزمع إنشائها دولة محايدة. ولكن اتخاذه من حالة الصرب والرومانيين كنموذج يوضح كيف أن كفته تميل للتركيز على الدعم الغربي بشكل أساسي– فعالم بنسكر هو عالم القوى الغربية الاستعمارية و الروس والدولة العثمانية– بنسكر الذي تم تكريمه لخدماته الجليلة في الحرب ضد العثمانيين (حرب القرم) وهو اليائس من انصلاح أحوال النخب الروسية لتكون أقل اضطهادا لليهود، لم يعد أمامه سوى الجوييم الغربي ليعول على دعمه وتأييده.

وكذلك ما يلفت النظر في مشاريع هس وبنسكر ولاحقا في هرتزل أن أرباب المشروع الصهيوني بالكاد كانوا يعبأون بالدين وأغلبهم علماني إن لم يكن لا ديني وأن همهم الرئيس هو الهروب من معاداة اليهود لأيما أرض، ولم يكن لديهم أي مزاعم استحقاق حصرية لأرض فلسطين ولا رفعوا دعوات أنها أرض الميعاد المخصصة حصريا

لليهود، مما يؤكد القول أن المشروع الصهيوني هو مشروع سياسي استعماري أخذ لاحقا صبغة دينية من باب الدعاية والتبرير.

٣- تيودور هيرتزل (١٨٦٠-١٩٠٤): الصهيونية كدبلوماسية استعمارية

أ- التنشئة والسياق

وصولا لتيودور هرتزل والذي تنسب له كافة جهود الحركة الصهيونية كأب روحي لها كما ينسب له أيضا أنه مؤسسها وصاحب فكرة دولة إسرائيل وهو ما فيه إغفال كبير لكافة الإسهامات السابقة عليه والتي ناقشنا فيها هنا اسهام موسى هس مؤسس الصهيونية العمالية وليون بنسكر مؤسس الصهيونية العملية ولاحقا سنناقش آحاد هعام مؤسس الصهيونية الثقافية. ولكن ماذا أسس هرتزل إذا ما أردنا أن نضعه في مكانه الصحيح بين أرباب الصهيونية؟ ينسب لهرتزل الصهيونية بمعناها الواسع ولكن بشكل أدق ينسب له ريادة ما يسمى بالصهيونية السياسية والتي في مفادها رأى أن حل المحنة اليهودية يكون بإنشاء دولة ليس فقط عبر ممارسة الدبلوماسية لضمان تأييد القوى الكبرى (مثل بنسكر) وفق مصفوفة للمساومات والفرص، ولكنه أيضا أول من وضع خططا سياسية وتنظيمية لتشكيل عناصر هذه الدولة وبناء منظمات فعالة لتحقيقها. وذلك وفق قراءة واقعية للسياق الدولي ووضع اليهود، وليس بناءًا علي تشاؤم فج ولا بناءًا علي تفاؤل وثاب. ولكن من هو تيودور هرتزل وكيف كانت قراءته للسياق اليهودي في العالم؟

هرتزل هو صحفى نمساوي–مجري وابن وحيد لتاجر غني، عملت أمه على تأسيسه للبحث عن الأعمال العظيمة، ونشأ في بيئة مجرية هيمنت فيها الثقافة الألمانية، تلقي تعليما تقنيا أهّله لوظيفة حكومية دنيا تركها للتفرغ للكتابة وكانت موهبته مفتاحا ليصبح كاتبا صحفيا في أهم صحيفة نمساوية و هي صحيفة نيو فراي برس Neue Freie Presse (صحيفة الصحافة الجديدة الحرة). في مرحلة ماقبل اهتمامه بالصهيونية مال هرتزل للكتابة الناقدة الساخرة، فقد نشأ نشأة تغريبية تنويرية هسكالية رأى فيها أن التقدم حتمي لا محالة وما سيتبعه من حرية ومساواة واندماج، وكلل ذلك ضعف تأسيسه اليهودي[٩١]، ولكن أيامه الجامعية مثلت بداية تعرفه علي معاداة اليهودية ذات التأسيس النظري والأدبي، وقد ترحل لباريس وعايش معاداة الصحافة الباريسية لليهود،وهو ما دفعه لبداية الاهتمام بالمسألة اليهودية كاتبا مسرحية "الغيتو الجديد" والتي وصل فيها أن اليهودي الأكثر اندماجا في المجتمع الغربي سيظل أيضا في غيتو، وإن احتفظ هرتزل حينها ببعض الأمل في انصلاح الذات الغربية نحو اليهود[٩٢].

ولكن الحدث الفارق كانت قضية دريفوس في فرنسا والتي أُتهِم فيها عسكري فرنسي بالخيانة العظمى لصالح ألمانيا وحفز ذلك كونه يهودي، وصاحب ذلك هياج العامة والرأي العام والصحافة ضد اليهود، وقد تابع هرتزل تلك الأحداث وبدأ في مقابلة كبار رجال الأعمال اليهود مثل موسى هيرش وبارون روتشيلد وانتهت لقاءاته بكتابة كتابه الدولة اليهودية مهديا إياه لروتشيلد وصائغا فيه حله للمشكلة اليهودية. أتبع ذلك تأسيسه لصحيفة داي ويلت Die Welt(أي/ العالم) والتي ستصبح الذراع الإعلامي للحركة الصهيونية التي سيؤسسها هرتزل بعد المؤتمر

الأول للحركة الصهيونية1897 . وقد نجح هذا المؤتمر في دعوة ٢٠٠ من كبار رجالات اليهود وتأسس على إثره المنظمة الصهيونية العالمية بهدف الوصول لحل للمشكلة اليهودية عن طريق تأسيس دولة يهودية في فلسطين، وقد عقدت في حياة هرتزل ٦ مؤتمرات للمنظمة الصهونية العالمية أسس فيها هرتزل كافة المنظمات المطلوبة لغرض الحركة. وتتمير صهيونية هرتزل باعتمادها الرئيس علي الدبلوماسية من خلال مقابلات ومفاوضات هرتزل مع السلطان العثماني عبد الحميد الثاتي، القيصر الألماني غليوم الثاني، ملك إيطاليا امبيرتو الأول، والبابا بيوس العاشر[٩٣].

وللغرابة فإن نجاح هرتزل الأهم في حياته كاد يدمر منظمته الصهيونية وذلك عندما قررت بريطانيا منح المنظمة أرضا في أوغندا (كانت في شمال غرب كينيا لكن هرتزل اعتقد انها أوغندا)[٩٤] وذلك لإنشاء الوطن اليهودي عليها، وقد وافق هرتزل علي الطلب وناقش مشروع اوغندا كوطن لليهود ولو مؤقتا وذلك تحت ضغط مذبحة خشنيف ضد اليهود الروس، ونجح هذا المشروع في نوال الأغلبية في المؤتمر الصهيوني السادس (الأخير في حياة هرتزل)،غير ان انقسام حاييم وايزمان و(والذي سيقود الحركة لاحقا ويأخذ وعد بلفور ويصبح أول رئيس لدولة إسرائيل) وعدد من المناوئين للمشروع ورفضهم لمشروع اوغندا كان كفيلا بتقسيم المنظمة فتراجع هرتزل عن فكرة اوغندا ومنذ حينها أصبحت فلسطين محط أنظار الحركة الصهيونية[٩٥]. وقد مات هرتزل عام ١٩٠٤ ونقل رفاته عام ١٩٤٩ لإسرائيل.[٩٦]

ب- قراءة المفكر للظرف اليهودي وصياغته للقومية اليهودي

ولكن كيف قرأ هرتزل السياق اليهودي وتعامل معه بشكل ميزه عن سابقيه من رواد الفكر الصهيوني؟ في كتابه الدولة اليهودية يرى هرتزل أن ما ينادي به من حيث الدعوة "لاستعادة الدولة اليهودية" ليس جديدا فقد سبقه لها الكثير[٩٧]، لكن رأى ما يميز طرحه أنه ليس يوتوبيا ولكنه مبني علي قراءة الواقع وقواه، وأنه وفقا لهذه القراءة سيقدم فقط الترتيبات الحركية لتحريك تلك القوة عن طريق خطة التروس والعجلات[٩٨]. فالقوة الدافعة لهيكله هو محنة اليهود والتي اتسمت محاولة علاجها بالضعف، فالمحنة كبيرة تحتاج لقوة مواجهة كبيرة. ويرى أن الحل في الدولة اليهودية ولكنه رأي ان تلك الدولة يحتاجها العالم لذا حتما ستقام[٩٩]. وهنا يتقاطع هرتزل مع سابقيه من حيث قراءتهم لحتمية الدولة اليهودية وأن التاريخ والوضع العالمي في صفهم، فقراءتهم ليست أبدا قراءة التابع المسحوق ولكن قراءة القوي الذي يرى أن ما يتعرض له لا يتفق مع إمكانات قوته، فهو يقول أن "القدر معنا"[١٠٠]، ولكن هذه الدولة تحتاج لكثير من اليهود فما وضع هؤلاء اليهود؟

وضع تلك القوة أنهم يعتمدون كليا علي مضيفيهم ومن ثم إذا سخط عليهم المضيفون قد يموت اليهود جوعا[١٠١]، وأن ما يراه اليهود في أوروبا للغرابة هو من البقية الباقية من ممارسات القرون الوسطى[١٠٢]، فحيثما هرب اليهود من الاضطهاد للأمان يواجهون اضطهادا ناشئا حيثما حلوا، في إنجلترا او فرنسا او حتى أخيرا في أمريكا[١٠٣]. كما أن هؤلاء اليهود قوة عاملة كبيرة، فكما انتهت مشكلة المسافات باختراع أسرع وسائل المواصلات والاتصال وكما تمهدت الجبال الوعرة وشقتها الطرق، حتما ستنحل مشكلة اليهود كما مشاكل المضطهدين[١٠٤].

لكن معاناة اليهود بالنسبة لهرتزل هي خليط من الغيرة التجارية والتحيز الديني الموروث، فمهما كانوا وطنيين في بلدانهم لا تقبل تضحياتهم، ومهما طوروا دولهم تظل جهودهم بلا معنى ، فهم أجانب، لأن رأي الأغلبية وليس قيمة الاسهامات هي التي تحدد من الغريب[١٠٥]. غير أن قرون الاضطهاد لم تمحهم، أي نعم الفولكلور الشعبي والحكمة الشعبية ضدهم لكنهم لن ينمحوا[١٠٦]، فهم فقط كيهود يحتاجون لمساعدة أنفسهم، وهذا بالنسبة له هو مرادف الصهيونية[١٠٧]، وهنا صيغة مساعدة الذات تكرر نفسها كموضوع مركزي يمثل خروج علماني على مفاهيم التوراة من قبل النخب الصهيونية العلمانية الناتجة عن الهسكلاه. وقد رأى هرتزل أن الاندماج الحقيقي لليهود كي يتم يحتاج لأن يكون بالزواج من الشعوب المضيفة[١٠٨] أو من خلال التمكين الاقتصادي لليهود وكلاهما مرفوض الأول ثقافيا والآخر لان قدرات اليهود المالية ستجعل الأغلبية تخضع للأقلية اليهودية[١٠٩].

مما جعل اليهود لا يتولون مناصب عليا في الحكومة ولا الجيش، كما ينالون عداء الصحافة، يطردون من الفنادق، تفرض عليهم ضرائب خاصة، تواجههم إعدامات، ضرب، وإرهاب. فأينما كانوا أقلية ومهما كان مستواهم الطبقي يتعرضون للمعاداة[١١٠]. فهل ينتظر اليهود تغير طبائع الناس؟ مستحيل.هل يتقربون للأمراء أكثر من الرعية؟ هذا سيزيد من سخط الرعية. كما أن قدرات اليهود المالية والتي صنعتها الفترة الاقطاعية ثم الرأسمالية جعلتهم أقوياء ماليا ولكن بداخل اليهود مفكرين يتحولون للاشتراكية. وبسبب هشاشة الوضع اليهودي فهم يتدهورون بشدة أكثر من غيرهم في أي صراع طبقي. ولكن الحل بالنسبة لهرتزل ليس بالاستيطان التدريجي[١١١] علي طريقة أحبة صهيون الذي سيثير بلا شك السخط والمقاومة عاجلا أو آجلا، ولا بالاستيطان لفلاحين لأن التحول للفلاحة ردة للخلف وضد التطور التاريخي لأنها مهنة في سبيل الانقراض. وبرغم من تشريع مختلف القوانين حقوق لليهود وممتلكاتهم إلا أن هذا لا يجعلها في مأمن من المصادرة أو التضييق بواسطة الضرائب، لكن ذلك الضغط وبسبب قوة اليهود المالية يؤدي إلى أزمات اقتصادية علي مستوى واسع[١١٢]. كما أن اليهود عندما يغرقون اقتصاديا واجتماعيا يصبحون قوة ثورية، وعندما يصعدون طبقيا يصبحون قوة مالية مرعبة، هذا جعل من أعداء اليهود يصفونهم كقوة واحدة[١١٣]. وتشير تلك اللفتة لأمرين هامين أولهما فكرة جان بول سارتر عن كون اليهودي هو نتاج مصطنع لمعاداة السامية وليس فئة قائمة بذاتها[١١٤]، وكذلك فكرة عبد الوهاب المسيري عن أن اليهود في الأساس هم جماعات وظيفية حسب ظروف كل مجتمع وليسوا وحدة واحدة[١١٥]. ما العمل إذن فهل كل الطريق مسدودة؟ وهذا يأخذنا لسؤال صياغة القومية في الطرح الهرتزلي

بالنسبة لهرتزل لا، إن إلقاء السؤال المناسب يمكن من الوصول لإجابة مناسبة؟ فمسألة اليهود ليست مسألة اجتماعية ولا دينية برغم اتخاذها تمظهرات تشبه تلك الملامح، ولكنها مسألة قومية. فاليهود وفق هرتزل هم شعب، شعب واحد، وبالتالي ليسوا طبقة أو فئة اجتماعية ولا يجب تناولهم كدين. ولكن عمق المشكلة اليهودية يحتاج لأن تكون مشكلة ذات طابع دولي تتناولها الأمم المتحضرة[١١٦]، وحلها إنشاء الدولة التي يكون لديها القوة اللازمة لحلها وذلك في إطار الحضارة. ومثل بنسكر فإن جوهر الدولة هو حصول اليهود علي السيادة في مكان يجمعهم، وليس مجرد حشدهم في مكان تحت سيادة غيرهم. وكما أكد هس على أن العبد في التفكير والرب في التدبير وأكد بنسكر

أن من يساعد نفسه يساعده الرب أكد هرتزل أن اليهود أصحاب الأرادة سيحققون الدولة و سيتحرر العالم بحريتهم ويثرى بثرائهم يتعظم بعظمتهم[١١٧].

لكن الحديث السابق لا يكفي ليميز هرتزل عن سابقيه ممن نادوا بدولة وسيادة ودعم القوى الكبرى، وهنا تبرز أهمية الصياغة السياسية التي قدمها هرتزل لمشروعه، والتي لخضها هرتزل في حديثه للمؤتمر الصهيوني الأول، فهرتزل رأى أن عمق المحنة اليهودية يتطلب أن تكون قضية دولية فكما لوجود اليهود مزايا اقتصادية إلا أنهم مشكلة للحكومات أينما حلوا، فإذا تعاونت معهم الحكومات سخط الناس ولو عاندتهم تضررت الحكومات اقتصاديا لسيادة الأعمال اليهودية علي الاقتصادات، وإذا وقفت الحكومة محايدة فإن اليهود غير المحميين سيقعون فريسية للتجنيد في صفوف الحركات الثورية[١١٨]. ومن ثم فالحل لكل هذا هو الصهيونية التي يقدمها هرتزل وفيها يتأسس لليهود دولة لهم السيادة عليها وينزح لها اليهود، وفي هذا يرى هرتزل أن صهيونيته تلك هي صهيونية صانعة للسلام لذا ستنال دعم الجميع، الكارهين قبل المؤيدين [١١٩]. ولكن ما أدوات تحقيق تلك الصياغة، فكما سبق واشرنا فإن هرتزل تميز بعمق الصياغة السياسية وتقديم العناصر التي تحقق فكرته وادواتها وكذلك يهمنا أيضا موقفه من الجوييم الغربي بداخل تلك الصياغة.

ج–موقع الجوييم الغربي من مهمة القومية وأدواتها

فيما يخص أدوات هرتزل وموقفه من الجوييم الغربي فإن كتابه الرئيس (الدولة اليهودية) ومذكراته وخطابه للمؤتمر الصهيوني الصهيوني وروايته (أرض قديمة جديدة) لا تخلو من حديث عن الأدوات وعن الغرب، وذلك لكونه ببساطة مفكر أيدلوجي وسياسي وقائد تنظيمي في آن واحد ولكن يهمنا في البداية فهم صياغته الفكرية لترتيبات مشروعه الصهيوني ومكوناته التي سوف توظف الأدوات لتحقيقها. ينطلق هرتزل من نقد الجهود الصهيونية السابقة عليه وبالأساس نقد جهود منظمة أحبة صهيون والتي أسسها سابقه بنسكر وقامت على جمع الأموال بغرض الاستيطان التسللي التدريجي و الهجرة الجزئية لفلسطين شيئا فشيئا حتى تكوين الوطن اليهودي[١٢٠].

يرى هرتزل أن تلك الفكرة ساذجة إن لم تكن فاشلة وخطيرة، فالبناء حجرا حجر لن يكتمل لوجود قوى مقاومة من سكان الأرض سيأتون في أي وقت ويهدمون البناء. ومن ثم لابد أن يكون الاستيطان ليس وفق مجرد تدريجي في الاستيطان ولكن وفق "حق" في الاستيطان القومي. وهنا يقدم المؤرخ الإسرائيلي الأهم بنزايون نتنياهو (والد بنيامين نتنياهو) قراءته لترتيبات هرتزل. ولكن "الحق" تمنحه الحكومة ويسري ضد الناس، غير أن ضغوط الناس من ناحية وتغيير الحكومات لقرارها كفيل بأن يحل هذا الحق .ومن ثم لابد أن يكون هذا الحق مطلق لا يمكن لأي حكومة حله وذلك بامتلاك اليهود حق "السيادة" على الأرض بحيث لا يمكن لأي حكومة أخرى التدخل فيه وأن يكون حق السيادة هذا معترف به دوليا من القوى الكبرى (وهو ما جرى بالفعل بعد وفاة هرتزل بوعد بلفور ثم الانتداب علي فلسطين) أي أن يكون لليهود حكومة وسيادة علي أرض تخضهم ومعترف بها دوليا. غير أن الحكومات قد ترجع عن اعترافها تحت ضغط سكان الأرض، لذا لابد من وجود ضمانات سياسية تكفل هذا الاعتراف ويكون من قبل القوى الكبرى بحيث يتم تكبيل يد تركيا (الدولة العثمانية) الحكومة الأهم المعنية بهذا

الأمر، وليس فقط ضمانات من القوى الكبرى ولكن من أهم قوة كبرى في العالم (بريطانيا) حينها. ولكن برغم الاعترافات والضمانات فهذا لن يحول دون اشتعال العنف من قبل سكان الأرض بين الفينة والأخرى مما يهدد استقرار الدولة الجديدة، ولهذا لابد من أن تمتلك الدولة الجديدة قوة عسكرية من المستوطنين تحمي الدولة كل الوقت، فالسيادة لا يعني مجرد امتلاك دولة ولكن استقلال السلطة الحاكمة وامتلاكها للجيش[١٢١].

ولكن حديث هرتزل وإن يبدو واقعيا إلا انه يتحدث من نقطة ستاتيكية ولا يضع في اعتباره موقف الدول على الأرض، ولكن هذا لم يفت هرتزل، فرحلاته ومفاوضاته كشفت له أن الدولة العثمانية لن تكون بهذه السهولة في قبول أفكاره، لذا رأى انه من الممكن أن تكون دولته دولة حكم ذاتي تحت السيادة العثمانية وتدفع لها الضرائب (ولكن أليس هذا ضد منطقه في حق السيادة المطلقة)، غير أن هرتزل أكد في غير مرة أن المهم تأسيس الدولة لأنه يرى بالفعل الانهيار التدريجي للعثمانيين وأن مصيرهم الزوال لا محالة وحينها ستقع الدولة كلها في يد الصهيونيين، تماما مثلما وقعت مستوطنات فرنسا في كندا وانجلترا في أمريكا الشمالية، فتأسيس الدولة وفقا للضمانات والعناصر السابقة هو الأصل، أما عن العثمانيين فسوف ينهارون قريبا. لذا عمل هرتزل علي اخذ موافقات ألمانيا والنمسا وإيطاليا ثم إنجلترا وفرنسا، وذلك باعتبار أن حل المشكلة اليهودية ضرورة سياسية[١٢٢]، لكن هل مارس اليهود الحكم سابقا ليتولوا منفردين الحكم؟ هنا يعترف هرتزل بحاجة اليهود لما يسميه بـ"شجاعة الحكم" وهو ما ستقوم منظمات هرتزل الصهيونية بتدريب اليهود عليها.[١٢٣]

وقد رأى هرتزل أن قيام الدولة لن يضر المندمجين ولكنه سيفيد المتضررين كما انه في مصلحة المسيحيين الأوروبيين الذين سيتخلصون من منافسة البرولتاريا اليهودية التي ستكون في طلائع المهاجرين، تلك البرولتاريا التي أدت لاضطراب الأسواق بسبب تنقلها من دولة لأخرى نظرا لتعرضها للمعاداة[١٢٤]. لكن الهجرة اليهودية لن تكون تسللية صامتة تدريجية لأن ذلك خطر ويزيد من كراهية اليهود وقد يفجر قوى مقاومة تدمر المشروع كله، ولن تكون هجرة إلى أكواخ واحراش نائية ولكنها هجرة كبيرة في مدن حديثة ينتقل لها اليهود بممتلكاتهم ويأخذون حقوقا بديلة عما تركوه، سيهاجر الفقراء أولا للعمل في الأرض وتحسينها ثم الأغنياء تدريجيا، فهذه الهجرة ستكون بمثابة عملية صعود اجتماعي لان كل من سيهاجر ستتحسن معيشته المادية ووضعه الطبقي[١٢٥]. وهنا يتوقف القارئ في فكر هرتزل عن الأسس المادية البحتة لمفاهمم صهيونية أصبحت مغطاه بغلاف ديني، كفكرة العالياه أي الهجرة لفلسطين والتي وإن روجت علي أنها فكرة نزوح ديني مقدس غرضها الرقي الأخلاقي والديني بأصحابها، لكن مؤطر الفكرة الأهم رأي في الأمر انه صعود طبقي غرضه تحسين الأحوال المادية للقائمين بالهجرة ولا مسحة دينية في حديثه عنها.

و ستكون تلك الهجرة وفقا للقانون كممارسة صديقة ومدعومة من الدولة الصديقة، سيديرها كيانان كيان معنوي أخلاقي وكيان قانوني، الكيان المعنوي هو الجمعية الصهيونية (المنظمة الصهيونية) والكيان القانوني هو الشركة الصهيونية. فالجمعية تصوغ السياسيات والشركة تنفذها،[١٢٦] وهي التي ستسيل الأصول اليهودية وتدير التجارة في الوطن الجديد، عبر هجرة تدريجية يذهب الفقراء أولا (لينجوا من العنف) وذلك لزراعة الأرض وتأسيس

البنية التحتية مما يحسن القدرات التجارية والاعمال ليذهب البقية لاحقا وبشكل طوعي[١٢٧]. وسوف تمنح القوى العظمى للجمعية حق بناء الدولة علي أرض محايدة و سوف تتفاوض علي مكانين يراهما هرتزل مفضلين نسبيا أولهما الارجنتين وثانيهما فلسطين، والأفضلية تكون لما يختاره الرأي العام اليهودي، الأرجنتين جيدة لنجاح تجربة موسى هيرش في رعاية إنشاء مستوطنات هناك ، فهي خصبة وكبيرة وجوها معتدل، لكنها ليست بلا معارضة من السكان، والذين سيحتاجون وفقا لهرتزل "للتنوير". أما فلسطين فهي الوطن التاريخي فإذا وافق السلطان سيدير اليهود ماليات تركيا كما أن الدولة الجديدة ستكون بمثابة قاعدة أمامية دفاعية للغرب وحائط صد في أوروبا تحمي الحضارة الغربية من البربرية، فهي دولة محايدة ولكن أوروبا بالتحديد هي من تضمن بقاءها، وترعى وجودها، فكأنها محايدة بين الأوروبيين ولا تتحالف مع أعداء أوروبا، وسوف تنال الأماكن المسيحية في فلسطين رعاية دولية مما سوف يجعل من الدولة اليهودية نقطة جيدة لحل مشكلات مسيحيي الشرق[١٢٨].

. ويبدو بلا شك هنا الرهان الكلي الذي يراهنه هرتزل (تماما مثل هس وبنسكر) علي الغرب كما وتوقعه انهيار العثمانيين وعداء الروس ومن ثم لا يبقي سوى الغرب لمحالفته، و يأخذ هرتزل نقطة أكبر في روايته الخيالية (أرض قديمة جديدة) والتي ترجمها للعبرية ناحوم سوكولو وسماها (تل أبيب) والتي ستصبح لاحقا عاصمة الدولة. ويصور فيها هرتزل أن الثقافة والعلوم والفنون في هذه الأرض أوروبية حتى ملابس الناس وطباعها. ويشترك هرتزل مع سابقيه في رؤيته للغرب ككيان مسيحي واستعماري في آن واحد ستلتقي مصالحه المادية الخاصة بالتخلص من اليهود وكذلك حماية مصالحه الاستعمارية مع مصلحة اليهود في تأسيس وطن جديد خارج أوروبا. كما ستلتقي مصالحه الدينية الخاصة بإرضاء جموع المسيحيين المتطرفين الرافضين لليهود مع مصالح اليهود في الذهاب بعيدا. ويعد تركيز هرتزل علي تلك المقاربات المصلحية نقطة قوة كبيرة تميزه عن سابقيه، كما أنها تميز بشكل عام جيل الهسكلاه وتخففه من التفكير الضدي الديني والمعتاد من الأرثوذوكس ويهود الغيتو غير المندمجين. ولكن من الغريب ان كل من هس وبنسكر وهرتزل عولوا على أن الدولة العثمانية سترضخ لطلباتهم إذا تعلق الأمر ببعض المال أو بسداد ديونها، وهو ما لم يحدث فقد بددت السلطات العثمانية تلك الطموحات، مما جعل هرتزل وأقرانه يعولون كليا على القوى الغربية المسيحية. وقد يكون اندماج اليهود في الممارسات المالية أو تفكير أربابهم لكونهم في الغالب رجال أعمال مبررا لتوقعهم تصرف العثمانيين بمنطق مادي بحت لا أخلاقي ولا ديني، ولكن هذا ما خالفه السلطان عبد الحميد الثاني وأحبط هرتزل.

ولكن هذا الطوفان المادي العلماني السياسي الذي مثله مفكرون مثل هس وبنسكر وهرتزل لم يكن وحيدا في الحركة الصهيونية فأمام هرتزل بالتحديد وقف آحاد هعام (أو أحد العوام) وهو الاسم الذي اختاره لنفسه آشير زفي جنجسبرج اليهودي الروسي رائد الصهيونية الثقافية، والذي تفرغت كتاباته لنقد ممارسات هرتزل وأقرانه (أحبة صهيون التي أسسها بنسكر) ممن تجاهلوا البعد الثقافي والروحي للصهيونية كحركة ثقافية ودينية قبل أن تكون حركة مادية سياسية.

٤- آحاد هعام (١٨٥٦-١٨٢٧): الثقافة والروح قبل الدولة والسياسة

أ- التنشئة والسياق

ختاما آحاد هعام رائد الصهيونية الثقافية وهو الذي يعني بالعبرية أحد العوام (في مصر: واحد من الشعب أو واحد من الناس) وهو الاسم المستعار الذي اعتمده لنفسه المفكر اليهودي الروسي آشير زفي جنجسبرج، واختاره قصديا ليعبر عن ميوله الزاهدة في القيادة وفي الظهور وغير المقتنعة بقدرته عليها، فهو يقدم رسالة أخلاقية لا تحتاج لذكر اسمه. وبرغم تسمية نفسه بأنه من أحد العوام إلا أن برنامجه كان الأكثر نخبوية والأقل تعويلا علي العوام، ولكن من هو آحاد هعام ؟ هو يهودي روسي (مولود في أوكرانيا في روسيا القيصرية) من ارستقراطية الغيتو الحسيدية (طائفة ارذثوذوكسية يهودية) تلقى تعليما يهوديا نقيا حرم عليه فيه استخدام الروسية حتى لا يتحول للهرقطة وحسنت دراسته للتلمود من قدراته الأدبية.

ولكن في نهاية شبابه تحول للتنوير اليهودي (الهسكلاه) واهتم بكتابات الفيلسوف اليهودي العربي موسى ابن ميمون وهو المشهور بالتوفيق بين الفلسفة الاغريقية واليهودية مقلدا لاتجاه الفلاسفة في العالم الإسلامي، وبدأ يقرأ الكتب المحرمة علىه الخاصة بالفلاسفة اليهود واهتم بالوضعية الروسية. ومر في تلك الفترة بعدة مشاكل أسرية وتشكيك في الهوية. حتى انتهى لكتابة منشوره الأهم وهو "ليس هذا هو الطريق" واضعا اسمه كأحد العوام وأنه ليس كاتب وإن اضطر لاحقا لقبول العمل كمحرر في المجلة اليهودية الروسية هاشيلواه (الرسول)Ha-Shiloaḥ (הַשִּׁלֹחַ) وبدأ بالاهتمام بمشكلات اليهودية بعد ٦ سنين من توليها وقد استقال لاحقا منها لآرائه مثيرة الجدل وترحل لإنجلترا حتى استقر في فلسطين[١٢٩].

ويقوم مشروعه الفكري على نقد الجهود العملية التي قامت بها منظمة أحبة صهيون ومؤسسها ليون بنسكر ونقد تيار الصهيونية السياسية وبالأخص تيودور هرتزل والذي كان جدالهما في داخل الحركة الصهيونية روحا لهذه الفترة ومشكلا للرأي العام الصهيوني. فقد رأى أن عملية بناء الوطن اليهودي لابد أن تكون تدريجية وبطيئة وبعناية ولا تقوم على محض الهجرة الجماعية وعلى لكن الإحياء الثقافي والروحي للشعب اليهودي وتنمية قدراته الروحية بواسطة قلة مختارة واستمر في دعوته تلك حتى بعد وفاة هرتزل برغم كونه أكبر سنا من هرتزل. فقد دعى لإحياء الحياة الثقافية للقومية اليهودية في الشتات وفي مجموعة المستوطنات الصغيرة والتي ستنشأ بعناية في فلسطين .لكنه استخدم مصطلحات دينية ولكنها شديدة التجريد والعمومية كمصطلح القيم الروحانية والروح والمركز الروحي دونما تفصيل لأجزاء من الديانة اليهودية وتقاليدها مما جعله هدفا لانتقادات اليهود الارثوذوكس الذين اتهموه باللادرية وعدم التدين، كما أن تصوره المحافظ الرافض لفكرة الهرولة السريعة لانشاء كيان سياسي في فلسطين جعلته في مرمى نقد الشباب الثوري والطموح في الحركة الصهيونية[١٣٠].

وقد أدت أفكاره لتأسيس مؤيديه لمنظمة بني موشي (أبناء موسى أو بنى موسى) Benei Moshe : בני משה كتنظيم نخبوي شبه سري غرضه تنمية القيم الأخلاقية والثقافية لمناخ الإحياء القومي اليهودي[١٣١]، وقد تولى على مضض قيادتها لكنه لم يستمر كثيرا بسبب طريقته، ورفض كثير من أعضاء الحركة الصهيونية لفكره، فلم

يحضر هعام أي مؤتمر للمنظمة الصهيونية بعد المؤتمر الأول. ولكن برغم جدليته إلا أنه كان ملهما لكثيرا من القادة الصهاينة اللاحقين مثل حاييم وايزمان والذي سيستعين لاحقا بهعام كمستشار له أثناء تفاوضه علي وعد بلفور، وقد أثر هعام في اللغة العبرية الحديثة بكتاباته عن كيفية تحديثها[١٣٢].

لكن الإشكالي في خلفية هعام هو موقعه بين تدين وانعزالية الغيتو وبين تنوير وعلمانية الهسكلاه، فهعام يتحدث بأن التركيز لابد أن يكون علي اليهودية وليس اليهود وعلي الروحانيات وليس السياسة والماديات، وبرغم من ذلك فصهيونيته صهيونية غير لاهوتية لا يبدو فيها اقتباسات ولا استشهادات كثيرة بالتوراه والتلمود، مما برر تسميته بالرابي اللادريThe Agnostic Rabbi ، فهو كغيره نتاج غريب من نتاجات الهسكلاه، لا يثق في التنوير لكن التنوير نفسه شكل طريقة تفكيره رغما عنه. ويرى أرثر هرتزبرج أن هعام وهرتزل وكافة رواد الحركة الصهيونية الحديثة هما نتاج التحولات الاقتصادية والاجتماعية الناجمة عن الحداثة في أوروبا والتي قضت علي الارستقراطيات النبيلة وسيطرة الزعامات الدينية لصالح الطبقات حديثة الثراء وبورجزاييها وهم قادة الثورة ضد الأحبار. وهو ما فعله هرتزل وبنسكر باعتمادهما على الطبقة الوسطى والجماهير بعدما نبذهما رجالات الدين في غرب أوروبا واتهموهما بالهرطقة والمرض النفسي، فالحركة الصهيونية بداخل الدوائر اليهودية مثلت ما هو أشبه بثورة الجماهير والأثرياء الجدد على الزعامات التقليدية من ارستقراطية ورجال دين، وقد كان حزب العمل الاشتراكي اليهودي في روسيا ولاحقا في بولندا والذي سمي بالبوند The Bund (وهو أول حزب سياسي يهودي) مثالا لذلك[١٣٣]. ويقف هعام علي خط الفصل بين كل تلك التحولات المشتبكة فهو ابن الارستقراطية والدوائر الدينية وابن الغيتو ولكنه تعرض للهسكلاه فخرجت آراؤه خليطا بين علمانية ثقافية وتدين شديد العمومية أشبه بربوبية مفكري القرن الثامن عشر ولا أدريتهم. ولكن كيف قرأ هعام سياقه وتوصيف وضع اليهود فيه.

ب- قراءة المفكر للظرف اليهودي وصياغته للقومية اليهودي

يستهدف فكر آحاد هعام مستويين نقديين أولهما نقده لوضع اليهود في أوروبا والآخر نقده لجهود اليهود السابقة والساعية لتحسين وضعهم في أوروبا، فجزء كبير من فكر هعام موجه لنقد جهود أحبة صهيون وبشكل أكبر استهداف الصهيونية السياسية وعلى رأسها هرتزل وشخصه. ويرى هعام المشكلة التي تواجه المفكرين الصهيونيين هي مشكلة اليهودية وليس مشكلة اليهود كما يزعم هرتزل[١٣٤]، فالمشكلة هي مشكلة الروح والثقافة وليس الدبلوماسية، فممارسات هرتزل السياسية لاتعدو كونها دبلوماسية وجمع للأموال وتتجاهل ما يميز الشعب اليهودي وهي ثقافته وروحانياته[١٣٥]، وكون المفكرين على طرفي النقيض هكذا. جعلهما بالكاد يستطيعا التحدث لبعضهما بشكل مجدي في أول لقاء لهما في المؤتمر الصهيوني الأولي[١٣٦]. هذا وبرغم اشتراك هعام مع سابقيه من رواد الحركة الصهيونية في جزئية عدم الثقة في جدوى الانفتاح السياسي الروسي، إلا أنه رأى أن الصهيونية بصيغتها السياسية هي ممارسة إنكارية للروحانيات وهرطقة ولا تعدو كونها مجرد ممارسة للقوة[١٣٧].

ويستشهد هعام بموقف الرابي يوحنا بن زكاي Johanan ben Zakkai الذي قاد مجتمع اليهود (الفريسيين) في فلسطين بعد قضاء الرومان والامبراطور طيطوس علي تمردهم (وبعد تدمير الرومان للهيكل الثاني وفقا

للمصادر اليهودية)، وعرض عليهم حكم ذاتي في القدس بل وفرصة لإعادة بناء الهيكل بعد تدميره، وقد رفض بن زكاي وقادة اليهود وقرروا بدلا عن ذلك تأسيس مركز روحي يعبر عن الديانة اليهودية وقيمها في مدينة يفنة Jamnia في فلسطين، خارج القدس، مدركين بشكل كافي (وفقا لهعام) ان السياسة وتمرداتها كانت كفيلة بتدمير اليهود واليهودية وأن القيم الدينية والروحية هي الكفيلة بالحفاظ علي بقاء القومية ووحدتها. فالصهيونية وفقا لهعام هي مجموعة من الروابط الروحانية والثقافية والعاطفية التي يحملها اليهود تجاه فلسطين، والدولة ليست هي الأداة لتحقيق ذلك ولا لتحقيق العصر المشيحاني الذي سيهيأ الظروف الثقافية والدينية لليهود لظهور المشيح[١٣٨]. فالصهيونية السياسية التي يروج لها هرتزل وأمثاله ما هي إلا عقدة نقص وحرية بداخل العبودية يحاول فيها اليهود أن يكونوا علي قدم المساواة مع الأوروبيين بالمشاركة في نظامهم علي مستوى دولي.

ولكن هل معنى ذلك أن كافة ما تدعو لها أحبة صهيون وصهيونية هرتزل السياسية غير مناسبة ؟ بالنسبة لهعام السياسة والدولة هي للمستقبل البعيد بعد تحقيق حياة قومية روحية في فلسطين والتمكن من الاستقلال القومي والبداية بتأسيس مركز روحي ثقافي رائد في فلسطين (وليس دولة)، ولكن الصهيونية السياسية بصيغتها التي عاصرها لن تجلب مشيحا الأن ولا غدا[١٣٩]، فهي سياسية فقط قائمة علي مساومات سياسية وجمع للأموال ولا تتحدث عن ما يميز الجنسية اليهودية وقوميتها، وهذا الامتصاص الكلي في السياسي يمهد تدريجيا لان تفتقد كل الحركة الصهيونية معناها، فالثقافة –وهي المشكلة الأجدر بالرعاية–هي ما يمثل اليهود وتطلعاتهم، لأن قصة اليهود في العالم هي قصة المعاناة من أجل حماية ما يمثلهم من ثقافة وقومية، ولكن عيب الصهيونية السياسية أنها لا ترى في المسعى الثقافي أي ضرورة ولا فائدة[١٤٠]. بينما هعام يرى أنها ما يعطي للصهيونية روحها ومعناها وتغني عقول الصهاينة وتعطي مبرر لكافة الجهود المستثمرة فيها[١٤١]، وبدونها لن تتعدي الصهيونية كونها دبلوماسية وحشد أموال.

ولا يكتفي هعام في تبرير مشروعه بنقد هرتزل ورفاقة ولكن بتوصيف مواطن الخلل في الوضع اليهودي، فهو يرى أن الثقافة كقضية مركزية لدى الشعب اليهودي تعاني من تدهور لدي اليهود، فدرجة ثقافة أي أمة هي نتاج ما تنتجه من أعمال ومن حيوية حياتها الثقافية[١٤٢]، وقد عملت الصهيونية السياسية على الإدعاء بأن كل منتجات يهود الشتات الثقافية بلا معنى لأنها لا تعبر عن قومية يهودية مستقلة [١٤٣]، بينما المشكلة الحقيقية بالنسبة لهعام هي الغرق في الفردية والاندماج فيي ثقافات الغير وتجاهل السمات الروحية لليهود والتقليد الأعمى للآخرين[١٤٤]، حتى أصبحت المعارف المنتجة عن اليهودية هي من أعمال غير اليهود و اصبح اليهود مقلدين لهم في مناهجهم[١٤٥]. فالاهتمام بالثقافة محوري وذلك لأن الثقافة هي رابط اجتماعي يجمع بين أفراد اليهود الحاليين كما أنها رابط تاريخي يربط بين ماضي اليهود وحاضرهم، وبدونها يتشتت المجتمع أينما كان[١٤٦]. وقد رفض هعام القول بأن أداب اليهود في الشتات ليست ذات قيمة بل إن أداب اليهود قبل الهسكلاه تمثل أدب قومي أصيل لذى دعا الي العودة الي الآداب الحسيدية كعودة لمعارف قومية نقية[١٤٧].

ويعد هعام ليس فقط رائدا للصهيونية الثقافية لكنه نموذج لما يسمى الصهيونية اللادولتنية والتي لا تتطلب دولة لتحقيق مطامحها، هي لا ترفض الدولة كليا ولكنها ستقام في الوقت المناسب [١٤٨] ولكن بعد أن يحافظ اليهود علي ثقافتهم ويطوروها وينجون كشعب متميز حافظ لأسس وجوده، وهذا يتحقق ببناء مركز روحي لتجديد وإحياء الثقافة اليهودي في فلسطين ويشع لخارجها[١٤٩]، ويرى إيال شورز أن الصهاينة السياسيين كانوا اقرب للبنائين[١٥٠] أكثر من المفكرين فالبنائين لغتهم أداتية بينما الثقافة هي لغة الكلمات ومجتمع التعبير وهو ما لم يفهمه السياسيون عامة [١٥١] ولم يستوعبوه لدى هعام.

ويرى الباحث أن جوهر مشروع هعام هو ضرورة أن يمتلك المشروع الصهيوني روحا لكونه في الأساس مشروع تجديفي مهرطق ضد الدين لن يستطيع الاستمرار دونما معنى مثالي، وقد عزم هعام علي تقديم هذا المعنى المثالي الذي لم يكن دينيا بالكلية لأنه لو كان دينيا لرفض الصهيونية في حد ذاتها كهرطقة، لكنه كان روحانيا وذا سمت ديني عمومي بلا تفاصيل حتى يعطي روحا لمشروع تجديفي بلا روح.

ويعد كتاب "الإحياء الروحاني" و "مقال ليس هذا هو الطريق" من أهم الأعمال التي صاغ فيها هعام صهيونيته الثقافية ووجه فيها سهام نقده لأحبة صهيون وهرتزل، ويتسم مشروع هعام بكونه نخبوي يرفض الاعتماد علي الجماهير وينتقد تسرع احبة صهيون لبناء مستوطنات كبيرة نظيرا لمستعمرات الأوروبيين في أمريكا، ودعا ألا يركز الصهاينة علي الحد الأدني الذي يجمع اليهود ولكن المثل العليا التي تستطيع جمع يهود جاهزين للتضحية و تحمل صعاب العيش في فلسطين، والتي لما زارها هعام وجدها مجرد مستوطنات فاشلة سيئة الإدارة تعلم أطفال اليهود معارفا أوروبيا وتلقنهم اللغة العبرية بشكل جامد ميت لا يمكنهم من تكوين جملة مفيدة. بينما المطلوب هو انشاء مجتمع نموذجي روحاني ثقافي يشع نوره للشتات وهذا بالطبع يحتاج وقتا وبعد أجيال متعاقبة في المركز الروحي لفلسطين القائم علي الروحانيات وحب التوراة يمكن اتخاذ خطوات لاحقة، وهو ما جعل موشي ليلنبلم Moshe Leib Lilienblum أحد قادة أحبة صهيون ومعاون ليون بنسكر باتهامه بالانهزامية[١٥٢].

ولكن اذا كان هذا الجانب السلبي الناقد من المشروع الهعامي، كيف كان جانبه البناء في صياغة القومية وملامحها ؟ يرى هعام أن الدولة اليهودية لابد أن تعني أكثر من مجرد استقلال ألبانيا، لابد أن تكون وطنا يعبر عن شعب الله المختار، وطنا يمهد للعصر المشيحاني الذي سيزهر في أرض القومية في فلسطين، حيث سيمارس فيها اليهود الربانية\الأستاذية priesthood الأخلاقية والتي يستقبلها كل العالم بالرضا (أي: القيادة الآخلاقية للعالم)[١٥٣]، هذا وإن تأثر هعام بأخلاقيات الغيتو المتمحورة حول الدين والرافضة للاندماج إلا أنه أيضا تأثر بقراءته العلمانية لدارون وسبنسر ونيتشه، فهو يرى أن الشعب المختار حوهره المثل العليا للبشر الفائقين supermen (مثلما تمثل أخلاقيات القوة سمة جماعات البشر العاليين عند نيتشه)، لكنه بخلاف نيتشه يرى أن شخصية "الصِدِّيق" Tsadik צַדִּיק (البطل الأخلاقي اليهودي، وهي نفس كلمة الصديق/الصديقين المذكورة في القرءان لوصف أهل الصدق والإخلاص في العبادة) كمثال أعلي يحتاج بيئة جديدة (وليس الوحش الأشقر مطلق القوة غير الأخلاقي عند نيتشه)، فاليهودي الذي يمتلك تلك الإمكانيات الأخلاقية التي تميزه عن الجميع يستطيع هو

وجماعته العيش تحت قانون ارقي من كل القوانين المتعارفة لدى كل القوميات، فالقوميات الأخرى هي مجرد إرادة مادية للقوة تختلف عن المثالية الأخلاقية اليهودية، فالقوميات الحالية ما هي إلا وثينات مؤسسة علي عبادة القوة ونهمها وليس الروح، وهي في ذلك سواء ماعدا القومية اليهودية، فجوهر القومية اليهودية هي الروح وكراهية السيف حبا في الكتاب[١٥٤].

ومن هنا فمن الضروري احياء التقليد الروحي اليهودي، وهذا يجعل طرح هعام يصنف اليهود خارج العالم السياسي [١٥٥]وهو ما برر نقده لأحبة صهيون وصهيونية هرتزل السياسية، فالمستقبل ليس لبرنامج عام يستهدف الجماهير، ولكن بناء مستوطنات قليلة مبنية بعناية في فلسطين لأناس علي مستوى روحاني عال وهذا كان برنامج منظمة بيني موشي (بني موسى) التي ألهمها هعام، فالمهم هو "تجهيز القلوب" وليس بناء الدولة. فبناء شبكة صغيرة منضبطة روحانيا من المستوطنات عبر عملية بطيئة ستحول دون أن تُغرق الأغلبية وتشتتاتها الأقلية الروحانية المثالية[١٥٦].

لكن السؤال ما هو بالتحديد الجوهر اليهودي الروحاني الصحيح ؟ لو كان هعام دينيا بحق لقال جوهرها الكتاب المقدس وانتظار المشيح، لكنه قال الروح the spirit بشكل عام[١٥٧]، ويرى الباحث أن السعي الإرادي حتى ولو بشكل ثقافي نحو تأسيس كيان يهودي في صهيون يظل من مؤثرات الهسكلاه وفكرة مساعدة الذات–self help ومن ثم يصعب علي صهيوني كهعام أن يقول أن جوهر اليهودية هو الكتاب والانتظار لأن حينها كان سينفي أي منطق للمساعي الارادية الناجمة عن صهيونيته الأخلاقية كما عن كل الصهيونيات، لأن الالتزام الصارم بجوهر اليهودية يتطلب أن يتبع اليهود الكتاب وينتظروا قدوم المشيح دونما تدخل منهم في الإتيان به ، ولفهم هعام تلك النقطة اكتفي بالقول أن جوهر اليهودية هو الروح–بشكل عام حتى يبقي علي مبرر لصهيونيته الإرادية وبقية الصهيونيات[١٥٨] ، والروح هي المثل الروحانية لليهود ما قبل عصر الأنبياء في عهد المملكة الكتابية قبل نزول القانون الكتابي، مما يجعل الصهيونية مشكلة أخلاقية يمكن حلها بالروح وذلك عبر إنشاء قومية علي أساس روحي وذلك بإقامة مركز روحي مهتم بالقيم الثقافية اليهودية ويشع نوره للعالم، وبدونها لن يحدث لا ثبات ولا استقرار[١٥٩]. فهذا المركز الروحي سيهتم بالمتطلبات المختلفة لغاياته وكل متطلب سيؤدي لعمل ومشروع يحققه وتدريجيا تنصلح أحوال القومية اليهودية و تستعيد امجادها بواسطة قلوب وعقول مليئة بالمعرفة والتعاطف والصواب الروحاني وتصل لذورتها[١٦٠].

وان كان تصور هعام يميل لليوتوبية إلا أن هذا تطلب منه أيضا انتقاد يوتوبية هرتزل والتي مثلت تصوره النهائي للدولة اليهودية وقد قدمها هرتزل في روايته الخيالية التنيولاند (أرض قديمة جديدة) والتي وجه لها هعام أقسى سهام نقده لهرتزل، فبعدما نشرها هرتزل أعلن هعام انفضاح أمر هرتزل، فتصور هرتزل للعصر المشيحاني (يعني هنا ذروة الأيام وتقدمها) كما بدى من الرواية لا شيء فيها يهودي، فقد كانت روايته تصور يوتوبيا مجتمع مقلدا لأوروبا يلبس فيها الشعب قفازات بيضاء ويذهبون للاوبرا ويتكلمون لغات أوروبية لا يبدو للعبرية أثر فيها ومقررات المؤسسات التعليمية أوروبية، وبرغم أن مركزها "أكاديمية يهودية" تخدم كل الأعراق لكن لم يبد واضحا

ما الذي يجعلها يهودية وليست مجرد أكاديمية. فالقارئ لرواية هرتزل لن يشعر بفرق اذا ما كانت روايته تستهدف تحرير اليهود او تحرير الزنوج فلا شيء يهودي فيها[١٦١]. فالنهضة القومية وفق هعام لا تتحقق بواسطة شركات الأسهم والتعاونيات ولكن عبر اتباع مثال نموذجي تاريخي وبذل الجهود عبر وقت طويل لتحقيقه. ولكن هرتزل لم يمرر هذا النقد بسلام ولم يتصد للرد عليه ولكن أوعز لماكس نورداو Max Nourdau صديقه ومستشاره للرد علي هعام الذي اتهم هعام بكون حريته حرية الغيتو ورفضه للاوبرا لانه لا يتصور سوى محاكم التفتيش، وأن دعوات هعام لتخفيف الوطأ والبطؤ في التنفيذ هي دعوة غافلة للاتساع السريع لمعادة السامية[١٦٢].

ولكن إن كان جوهر تصور هعام للمجتمع يقوم علي نخبوية نتشوية فهو أيضا متأثر بداروينية سبنسر التي تؤمن بأن تعقد المجتمعات وعمقها هو الذي يجعلها تتأقلم وتستمر، بخلاف جماهيرية وعمومية هرتزل والذي كان مشروعه للتوطين في أوغندا سببا أخرا لضربة هعامية جديدة أشار فيها أن هرتزل كشف انه لا يهتم بفلسطين أصلا، فلسطين الوطن القومي الذي رأى هعام انها لن تكون جذابة دونما العبرية كلغة وكوسيط ثقافي يجعل اليهود يهودا ويربطهم بتاريخهم وموطنهم. ذلك لأن استيطان فلسطين لن يكون سهلا ولا نزهة رفاهية كما استيطان أمريكا[١٦٣]. ولكن هل قدم هعام تصور لأدوات عملية وما موقفه من الجوييم الغربي في مصفوفة أدواته إن وجدت؟.

ج–موقع الجوييم الغربي من مهمة القومية وأدواتها

بالنسبة للأدوات والموقف من الجوييم الغربي فينطلق هعام بأن اختلافه مع تطلعات وأدوات أحبة صهيون والمنظمة الصهيونية الهرتزلية لا يعني دعوته لإلغائهما ولكن لأنهما غير قادرين ولن يتكفلا بتحقيق طموحات صهيونيته الثقافية فلابد من تأسيس منظمة خاصة ترى أولوية الثقافة اليهودية وتعمل علي تنميتها[١٦٤]. ويرى هتزبرج أن ما يميز هرتزل عن هعام وأثر علي أدواتهما هو مدى ثقتهما في العالم الوثني[١٦٥]، والذي يفضل الباحث هنا تركيزه بالأساس علي الجوييم الغربي (العالم الوثني الغربي) والذي مثل مركز اهتمام الحركة الصهيونية دونا عن بقية العالم، فبينما وثق فيه هرتزل وراهن عليه كفر به هعام كليا ولم يثق فيه.

ومما لا شك فيه أن هعام لا يرى أن أداة تحقيق هدفه هو قيام دولة يهودية لأن الدولة اليهودية التي يحلم بها لن تكون مجرد دولة عادية ذات سيادة لا تختلف عن ألبانيا كما سلف الذكر، لذا رفض في المؤتمر الصهيوني الأول القول بأن حشد اليهود في فلسطين سيحل المشكلة اليهودية، فالسعي للقوة وبنائها سيقضي علي الرابطة التاريخية القديمة، كما أن جعل فلسطين مجرد دولة أداة يطيح بقيمتها في خضم مصالح ومساومات القوة. وهو ما دفع هعام إبان مستشاريته لحاييم وايزمان بإقناعه بضرورة أن تكون صيغة فلسطين في وعد بلفور شديدة العمومية[١٦٦]. هذا لا يعني أيضا رفض هعام للجوانب المادية لكن المادي والروحي مطلوبان معا، وهذا ما غفلته صهيونية هرتزل، فبناء مستوطنات لليهود في أرض الأسلاف علي حد تعبيره لابد ألا ينكر أو يتجاهل الجهد المطلوب لبناء مركز قومي روحي للثقافة والتعليم والآداب والفنون.

ومن هنا يرى هعام أن تأسيس مدرسة كبيرة وتعليم الأطفال أو بناء جامعة كبيرة أفضل من تأسيس مستوطنة زراعية فلاحية لأن الأولتين بناء للمستقبل[١٦٧]. أي نعم الأمم الصحيحة يبدأ بناؤها من الأسفل بداية بالسياسة والاقتصاد حتى تتهيأ الظروف للأمور اللامادية كالثقافة والفنون. ولكن هذا يصدق علي الأمم الناشئة وليس أمة قديمة كأمة اليهود لها مقومات روحية عديدة وكبيرة، ولكن تعطل نموها فأصبحت طفلا ورجلا في آن واحد[١٦٨]. كما أن البناء من أسفل ومن أعلي في آن واحد خطأ (يعني هنا أن تكون جهود هرتزل موازية لجهوده في نفس الوقت)[١٦٩]، فبناء المركز الروحي لابد له من الأولوية فالمنظمة المزمع انشاءها ستنمي كل انجاز أخلاقي وروحي تمهيدا لاكتمال المركز الروحي مما قد يتيح حينها الحديث عن الدولة[١٧٠]. كما أنه يرى المنظمة الصهيونية الحالية التي يتزعمها هرتزل لن تستطيع أن تشغل نفسها بالثقافة– أي بغرضين– كما أن أهدافها ووسائلها مختلفة والمتطلبات المنتظرة من أعضائها مختلفة أيضا، فقط الثقافة هي أكسير حياة الشعب في نضال سعيه للوجود[١٧١].

وهنا يقف هعام موقف المتنحي عن الدعم الغربي، فهعام ابن الغيتو غير الواثق بالوثنيين لم يظهر في كتاباته أي تعويل علي القوى الكبرى مثل هس و بنسكر وهرتزل، وذلك لأن جوهر الصهيونية الثقافية هو المثل الأخلاقية والروحانية وليس المساومات الدبلوماسية وأن مسعى بناء الأمة هو مسعى ذاتي يتطلب جهدها المستقل علي وقت طويل ومنظم وتدريجي وليس اختصار الطرق بالتعويل على الأطراف القوية برغم اختلاف الثقافة والروحانيات، وقد تكون تلك النقطة الوحيدة التي لم تطالها الهسكلاة في صهيونية هعام، أي نعم أتت روحانياتها بصيغة عامة ربوبية أكثر منها يهودية دينية، لكن أخلاق الغيتو –والتي استهدفها ماكس نورداو في انتقاده لهعام– هي التي حالت بين هعام وبين التعويل علي الغرب في مشروعه الروحاني. وإن كنا واقعيا لا ننكر أن ممارسات هعام نفسه تختلف عن فكره الناقد لدبلوماسية هرتزل وانبهاره بالثقافة الغربية، فهعام هو مستشار حاييم وايزمان في أهم مبادرة دبلوماسية في التاريخ الصهيوني وهي وعد بلفور والتي عول فيها اليهود علي دعم القوة الأكبر حينها وهي بريطانيا.

وإن كان عاب على هعام عدم حساسيته للظرف اليهودي وما يمر به اليهود من اضطهاد عنيف اوروبي في عصره والذي انبرى أغلب المفكرين الصهاينة للتفكير في حلول سريعة للنجاة باليهود منه، ولكن أخلاق الغيتو تجعل من هعام محافظا علي التوجه اليهودي التقليدي الذي يرى المعاناة اليهودية مهمة إلهية وأن التجمع في أرض الميعاد وتحقيق المشيحانية هي قدر إلهي سيحدث حينما يريد الله هذا، أي نعم هذا لم يمنع سعي هعام لاتخاذ إجراءات عملية من باب التحقيق الارادي للمركز الروحي في فلسطين لكنه لم يكن علي عجل، فلم يمسه هلع ضغوطات معاداة السامية الصاعدة مثلما مست أقرانه، كان عمليا مثلهم في بعض الأمور لكنه لم يكن في صهيونيته الإرادية عجولا.

ولكن كيف يمكن مناقشة قضية القومية الصهيونية لدى أباء الصهيونية العمالية والعملية والسياسية والثقافية، وجدلية الحلولية اليهودية في مقابل التعويل علي الجوييم الغربي الوثني، وكيف تلهم اسهاماتهم المتباينة فهمنا لادعاءات الصهيونية في سياقنا الحالي.

سادسا: المناقشة

يطرح التناول المقارن الذي قدمناه عن المفكرين الصهيونيين الأربعة عدة إشكاليات هامة، حاولت الدراسة الإجابة على بعضها، والبعض الآخر جديد وحفزته نقاشات المفكرين. ولكن بالعودة لإشكالية الدراسة كيف يمكن أن نفهم إذاً القومية اليهودية وفق طروحات الصهيونية ونحكم عليها؟ هل هي قومية أصلانية بدئية أم هي حداثية مصطنعة، أم بين بين ؟

بالعودة لأفكار المفكرين الأربعة آباء الصهيونيات العمالية والعملية والسياسية والثقافية فالمشترك بينهم جميعا هو قراءتهم المتشابهة لحد كبير للحظة التاريخية والتي تتسم بأمرين أولهما التحول العالمي نحو القوميات والأمر الآخر اتساع رقعة معاداة اليهود، الأول بلا شك هو نتاج حداثي فسره البعض على انه ناجم عن نتاجات الثورة الفرنسية والتحولات الحادثة في أوروبا. غير أن الثاني وهو معاداة اليهودية (أو معاداة السامية على حد تعبيرهم) هي ظاهرة قديمة تعود لقرنين من الزمان مرتبطة بشكل أساسي باتهامات المسيحية الظنية لليهود بقتل المسيح، وغيرها من الاتهامات التي سردها المفكرون، غير أن العلاقة بين الأمرين ليست منفصلة فشق كبير من تلك المعاداة ينبع من عدم اعتبار الشعوب المتحولة نحو القومية أن اليهود جزء منها، فكأن معاداة اليهودية هي نتاج للتحول نحو القومية وليس نتاج حصري لاتهامهم الظني بقتل المسيح، ولكن السؤال: لماذا لم يتم اعتبار اليهود الأوروبيين شرقا وغربا كجزء من القوميات الاوروبية الناهضة ؟ بلا شك لا يمكن فهم تلك المسألة دونما عودة لملابسات استجابة اليهود للتنوير أو بمعنى أصح موقفهم من الهسكلاه، فملابسات الهسكلاه ومدى نجاحها في إدماج اليهود كجزء من الشعوب الأوروبية لم تكن سلسة، فقد كانت استجابة اليهود للهسكلاه معقدة وجدلية.

كما عرضنا من فكر المفكرين تبدو علاقتهم بالهسكلاه فريدة من نوعها فالظروف الاجتماعية والسياسية التي تمت فيها الهسكلاه سواء من حيث عدم جدية الأنظمة السياسية في دمجهم كما والنوايا الدينية المسيحية لتلك الأنظمة ونخبها من وراء الدمج، بجانب عدم تشرب الجماهير المسيحية الأوروبية لفكرة التسامح على غرار التنوير، كل هذا جعل المفكرين اليهود لا يثقون في نوايا القائمين علي التنوير ولا في محتواه. كما أن المنطلي منهم لحجج التنوير ردته لاحقا همجية الجماهير وغوغائيتهم وتطرفهم الديني ضد اليهود، فمن ابتلع الهسكلاه أولا لفظها لاحقا على إثر الممارسات التي تبعتها، سواء أعمال العنف في روسيا أو قضية دريفوس أو النظريات والفلسفات والفنون المعادية لليهود أو حتى الثقافة الشعبية الكارهة لهم.

لكن الهسكلاه لم تكن مجرد لحظة عابرة في تاريخ اليهود الأوروبيين، فقد كانت مناخا عاما وقوة كبيرة، وكما رأينا فيما تم عرضه فإن المفكرين رفضوا جدوى الهسكلاه كسياسة وكوضع اجتماعي لكنهم كلهم وبلا استثناء تشربوا افكارها وكانت طريقة تفكيرهم نتاجا لها. وتلك هي إشكالية العلاقة مع الهسكلاه وعلاقتها الفريدة من نوعها مع المفكرين اليهود فقد رفضوا الهسكلاه كسياسة ووضع اجتماعي وزعموا عدم جدواها في تحسين أحوالهم برغم أن فكرهم كمحتوى وطريقة تفكير وكبناء مفاهيمي هو نتاج للهسكلاه، لذا يمكن اعتبار فكرهم كما وضع الباحث

في عنوان البحث انه فكر مابعد الهسكلاه ليس فقط كفترة تاريخية after Haskalah ولكن فكرهم كهامش نقدي على الهسكلاه ولكنه متشرب بقيمها post-Haskalah.

وهذا يعيدنا للسؤال كيف يمكن تصنيف القومية اليهودية اذن وفق رؤية آبائها؟ يصدق علي الصياغة الصهيونية للقومية رؤية ايرك هوبسباوم وإيلي كوديري فيما يخص بناء القومية في العصر الحديث وهي أنها بمثابة اختراع للتقليد هذا التقليد برغم كونه نتاج التحولات الحداثية في بنية المجتمعات لكن أدوات بنائه قد تكون جديدة وقديمة في آن واحد، وفق ما تجده القومية في طريقها من عناصر يمكن بها بناء سرديتها. لكن حتى إذا لم توجد تلك العناصر القديمة، كانت القومية ستخترعها علي أية حال، وهنا يمكن تقييم المشروع الصهيوني والقومية اليهودية والتي تتأسس على فكرة التاريخ اليهودي القديم والممتد ووحدة الشعب اليهودي، فمن الواضح أن تلك القومية وفق آراء مفكريها الصهاينة لم تكن تطلعا لتاريخ طويل ولا حاجات دينية محضة ولكنها استجابة لظروف سياسية و اجتماعية واقتصادية حديثة تم استثمار عناصر قديمة كتاريخ الديانة ومفاهيمها جتى يمكن تأطير القومية. ولكن هل التعويل علي عناصر قديمة في بناء القومية يجعل تلك القومية قديمة أصلانية؟ وفق الظروف التي ناقشناها لا، كما وفق طرح هوبسبام وكوديري فإنه اذا وجدت تلك العناصر القديمة أو لم توجد كانت ستخترعها القومية أو تضفي عليها اللازمنية المطلقة، ومن ثم قدمها أو غيره لن يكون مؤثرا في مدى اعتبار القومية حداثية مصطنعة. فاستثمار اطروحات وعد الله وحلولية الشعب والأرض المقدسة كان سيحدث سواء كانت تلك العناصر موجودة في الديانة أو لا، فسوف يتم اختراع اشباه لها تبرر المشروع.

الأمر الآخر والملفت فيما عرضنا هو يقين المفكرين الأربعة بأن التاريخ\القدر في صفهم، وهي وإن كانت فكرة نابعة بشكل كبير من سيادة النظريات التاريخانية الهيجلية في غرب أوروبا والاشتراكية في غربها وفي روسيا والتي تأثر بأطروحاتها مختلف المفكرين إلا أن ذلك لم يكن محض افتراض نظري بل كان قائما علي تحولات واقعية حادثة في السياق تمثلت في الصحوة القومية من ناحية ومن ناحية أخرى أن تلك الصحوة حدثت على هامش أوروبا وبالأخص في الإمبراطورية العثمانية، ولما كانت فلسطين جزءا من تلك الإمبراطورية التي أخذت في التفكك تدريجيا وسادت على جروحها دعوات القومية، فكان من المنطقي أن يحلم قادة الصهيونية بأنهم أيضا سينالون نفس الفرصة القومية وينتزعون فلسطين من تلك الإمبراطورية المتهاوية. فالشعور العميق بأن التاريخ والقدر في صفهم جزء كبير منه كان الوضع المتدهور الذي كانت تمر به الإمبراطورية العثمانية والتي كانت دعوات الانفصال عنها تصاغ في إطار القومية. وهي الفكرة التي راودت المفكرين من أن أزمة العثمانيين الإدارية والمالية ستجعلهم يقبلون التنازل عن فلسطين بالمال، وحتى لما رفض السلطان العثماني مطالب هرتزل، ظل هرتزل مقتنعا بأن انهيار الإمبراطورية مسألة وقت، ووفقا لهذا عول كليا على الدعم الغربي.

وهذا يحيلنا لقضية تأسيس المشروع الصهيوني على الدعم الغربي- وبصياغة يهودية دينية أكثر- تأسيس مشروع العالياه والذي يمثل صعود الشعب المختار للأرض المقدسة بالاعتماد على الجوييم الوثني الغربي. بالتأكيد بلغة سياسية تبدو العبارة الأولى ممكنة ولكن بلغة دينية تبدو العبارة الثانية متناقضة؟ كيف حدث هذا وكيف كانت

مبرراته؟ بلا شك مفتاح الفهم هنا هو الهسكلاه، فالمفكرون الثلاثة الأول هس، بنسكر وهرتزل لم يكونوا مفكرين دينيين ولم يبد للدين اليهودي حضورا قويا في فكرهم أبعد من مجرد توظيفات سطحية له بغرض بناء القومية. فالقيام بممارسة تجديفية مهرطقة كإقامة الوطن المقدس عنوة والاعتماد على الوثنيين في هذا المسعى لم تكن أمرا حساسا للمفكرين الثلاثة الأول لتشربهم قيم الهسكلاه ولكونهم أوروبيين أكثر منهم يهود، فتفكيرهم الهسكالي (سمه العلماني إذا كان مناسبا) جعلهم أقل حساسية تجاه المفاهيم اليهودية وخطوطها الحمراء. يمكن فقط أن نعتبر أكثرهم يهودية برغم تماسه مع الفكر الهسكالي هو آحاد هعام والذي كانت نشأته اليهودية التقليدية وخلفيته الاجتماعية المرتبطة بزعامات الغيتو جعلته أكثر احتراما للمفاهيم اليهودية مما جعل مساحة الجوييم الغربي في مشروعه هي تقريبا الأقل بين كل أقرانه.

هذا والحديث عن توظيف الجوييم الغربي في إطار المفاهيم اليهودية يتطلب مناقشة سؤال نوعية المسألة اليهودية هل هي مسألة نظرية تدخل في إطار الثقافة والدين أم أنها مسألة عملية تدخل في إطار السياسة والاقتصاد. بالطبع التفرقة تلك تبدو سطحية لكن هذا السؤال ظهر بتلك الصيغة بشكل أو بآخر في فكر المفكرين، فبينما اعتبرها بنسكر وهرتزل مسألة عملية مطلقة ترتبط بالشعب اليهودي وليس بالثقافة ولا بالدين، اعتبرها هعام مشكلة نظرية فهي مشكلة اليهودية ليست مشكلة اليهود وأن التركيز الأهم هو التركيز علي الثقافة والقيم الروحية وليس الدبلوماسية وحشد الأموال. أما موسى هس فأطروحته تبدو خليطًا بين قراءة واقع التاريخ الغربي ولكن أضفى عليها نزعة مشيحانية دينية بجانب حديثه عن العلاقات الحضارية بين اليهود والجوييم الغربي فمفاهيمه تبدو خليطا وهي تعبر في ذلك عن خلفية هس والتي تراوحت بين الاشتراكية المادية التي عايشها علي يد ماركس وانجلز وبين يهوديته واحباطاته الدينية.

ويرتبط بفكرة عملية أو نظرية المسألة اليهودية سؤال الدولة كأداة ومحورية فلسطين كتحقيق لتلك الأداة. فهل أراد هؤلاء المفكرون الدولة كأداة لتحقيق مطامحهم وهل كانت فلسطين تلك الدولة؟ بلا شك فهس وهرتزل وبنسكر يجدون في الدولة وتأسيسها أداة محورية لتحقيق مشاريعهم وهو ما لم يراه هعام لاهتمامه بالثقافة والاحياء الروحي عبر مركز ثقافي روحي وليس عبر دولة وإن كانت الدولة ستحدث لاحقا عند تهيئة الظروف الثقافية والروحانية، ولكن هل فلسطين هي تلك الدولة ؟ بالنسبة لهرتزل وبنسكر –وهما تقريبا الأكثر عملية ونجاحا سياسيا والأكثر قدرة علي تحقيق خطوات فعلية تبني الحركة الصهيونية– لم تكن فلسطين أولوية لهما في أي شيء، أي نعم لاحقا أسس بنسكر أحبة صهيون في فلسطين وهرتزل تحول كليا نحو فلسطين بعد أزمة مشروع أوغندا– لكنهما في كتاباتهم التي تعبر عنهما لم تكن فلسطين محورية لتحقيق مشاريعهم. بالطبع هي خيار مفضل، لكنها ليست بالضرورة المطلوبة، أما هعام فقد رفض الدولة ولكن مشروعه الروحاني والثقافي جعل من فلسطين دون غيرها مركزا لهذا المشروع لارتباط فكرته بتاريخ اليهودية ومحورية الديانة والاماكن المقدسة والروحانيات. أما موسى هس فيرى أن الرسالة الحضارية التي يستطيع أن يقدمها اليهود للعالم (يقصد العالم الغربي) تتطلب ممارستهم لحياة سياسية مستقلة، غير أن تلك الحياة المستقلة لكي تكون ذات جدوى حضارية لابد أن تقع على خطوط المصالح

الاستعمارية وتقوم بمهمة ناقلة الحضارة الغربية وتكون نقطة حصينة للدفاع عنها، مما يتطلب وجودها على الحدود الفاصلة بين الغرب و الشرق الهندي والصيني، ولا يمكن الجزم عند هس أن اختيار فلسطين كان لملاءمتها للمشاريع الاستعمارية أم لأن اختيار فلسطين هو الأهم، وأن محاولة تبرير فلسطين تطلبت تقديم فكرة عن فائدة اختيارها للمشاريع الاستعمارية بالحديث عن الحضارة والثقافة وغير ذلك. لكن المهم أن لفلسطين جدوى حضارية واستعمارية عنده.

وأخيرا يشكل المشروع الصهيوني تجسد لتصور الحداثة للإنسان وسيطرته علي الكون وانفصاله عن الخضوع لليقينيات الإلهية، فالصهيونية كما بدت مع الأحبار "القلعي وكاليشر" مثلت نقلة ترفض اعتبار معاناة اليهود وتشتتهم على أنها رسالة الهية تتطلب الانتظار حتى ظهور المشيح، فلا يوجد رسالة إلهية من تلك المعاناة وأنه يمكن بالإرادة الذاتية ومساعدة الذات انهاء المعاناة وتحقيق النبوءات بالإرادة ودونما انتظار، وإن غلب علي المفكرين بنسكر وهرتزل رؤيتهم أن مساعدة الذات هي محاولة للنجاة وليس تحقيق نبوءات أو رسالات كبرى بينما هس وهعام كانوا أميل لاعتبار ممارسة الإرادة هي تمهيد للمشيحانية وتحقيق الرسالة الحضارية والإلهية من الوجود.

ومن هنا فقد ناقشت الورقة عدة إشكاليات حاولت طرحها منذ البداية وهي مدى أصلانية القومية اليهودية، تفرد الهسكلاه في تشكيل وعي واستجابات المفكرين الصهاينة الأوائل، الجدل حول أدوات المشروع الصهيوني وهل الدولة مركزية فيه، وإن كانت الدولة مركزية هل لابد أن تكون فلسطين تلك الدولة، وكيف يمكن اعتبار المشروع الصهيوني تجسد للتفكير الإرادي والأداتي للإنسان الحديث وتسلله بتلك الأفكار بداخل الأطر الدينية المقدسة. غير أن القارئ لفكر هؤلاء الآباء يجدهم دونما مواربة أقل اهتماما بالدين وأكثر تأثرا بالمحنة العدائية الأوروبية لليهود وسعيهم للبحث عن مخارج على حساب ضعفاء العالم سواء كانت الإمبراطورية العثمانية المتهاوية أو أفريقيا أو مستعمرات أمريكا، غير أن حل تلك المشكلة لم ينبع من وعي يهودي تحركه القيم اليهودية ولكن من وعي أوروبي تحركه ممارسة الرجل الأبيض لفكرة الاستعمار حلا للمشكلات وجلبا للمنافع، وربما كان هذا الوعي (الأوروبي الأبيض أكثر من كونه يهوديا) هو الجسر الذي ساعد على جعل المشروع الصهيوني مستساغا للنخب الأوروبية وكأنه فرصة استعمارية في الشرق وقلعة غربية في الشرق أو على الخطوط الفاصلة للحضارة، ذلك التبرير الذي ما يزال يحرك دوافع القوى الغربية تجاه إسرائيل حتى يومنا هذا.

الخلاصة

حاولت الدراسة أن تفهم ذلك التناقض الداخلي في المشروع الصهيوني وهو الذي يتمركز حول فكرة الحلولية (شعب الله المختار) وفي نفس الوقت كانت مشاريع الصهيونية الحديثة تعتمد في تشكيلاتها على الدعم الغربي (أي العالم الوثني الغربي: الجوييم)، فما المساحة التي قدمها المفكرون الصهاينة الأوائل لحل تلك الإشكالية وما ظروف صياغتهم لها ؟ وقد توصلت الدراسة إلى أنه لم تكن هناك إشكالية تعارض بين الإيمان بحلولية اليهود (كشعب مختار من الإله) وبين الاعتماد على الجوييم الغربي (العالم الوثني الغربي) لتحقيق مشروع الصهيونية، وذلك لأن المفكرين الصهيونين في غالبيتهم كانوا متأثرين بالهسكلاه (قيم التنوير والاندماج في الحضارة الغربية) أكثر من قيم الغيتو (التفرد والانعزال وحماية النقاء اليهودي)، فهم كانوا هسكاليين علمانيين أكثر منهم يهود باستثناء آحاد هعام والذي كانت نشأته في الغيتو مروضا لميوله الهسكالية، والتي لم تحول بينه وبين التعويل على الإرادة الذاتية لتحقيق العالياه بدلا عن انتظار المشيح. كما تباينت مواقفهم من وسيلة تحقيق العالياه فأكثرهم عملية ودولتية وتأثيرا (بنسكر وهرتزل) لم يكن في بالهما فلسطين كأولوية لتحقيق العالياه والتوطين، وأقلهم عملية بل ورفضا لفكرة الدولة(هعام) لم يرى مبررا لتأسيس دولة يهودية كضرورة عاجلة لإنقاذ اليهود وتحقيق الصهيونية، وقد بدا واضحا تماهي المفكرين الأربعة مع المصالح الاستعمارية الغربية ومحاولة تقديم مشروع الصهيونية كحل للمشكلات الغربية ومساعد لمصالحها الاستعمارية بل وخادم لرسالة حضارية تحمي الحضارة الغربية وتدافع عن قيمها وتنشرها. وقد كانت خلفية ظهور الصهيونية دلالة علي كونها استجابة لتتغيرات الاجتماعية والسياسية للحداثة أكثر من كونها سعي ديني لتحقيق القومية، بالطبع تم استخدام أدوات دينية لتحقيق تلك القومية لكن القومية اليهودية الناشئة على يد الصهيونية الحديثة هي قومية مصطنعة ليست أصلانية ولا بدئية ولكنها استجابة للظروف في العالم الغربي وقد طوعت مفاهيم دينية قديمة لتحقيق تلك الاستجابة واقعيا.

هوامش الدراسة

[1] Steven Grosby (2015). Perennialism. In **The Wiley Blackwell Encyclopedia of Race, Ethnicity, and Nationalism** (eds A.D. Smith, X. Hou, J. Stone, R. Dennis and P. Rizova). https://doi.org/10.1002/9781118663202.wberen208

[2] Triandafyllidou, A., & Ichijo, A. (2002). Introduction. **Geopolitics**, 7(2), 1–4. https://doi.org/10.1080/714866632

[3] Jonathan Spyer (2005) "Theories of Nationalism: The Israeli Experience as a Test Case.**" Israel Studies Forum,** vol. 20, no. 2, 2005, pp. 46–68. JSTOR, http://www.jstor.org/stable/41805142. Accessed 17 September. 2024.

[4] Benedict Anderson(2006). **Imagined Communities: Reflections on the Origin and Spread of Nationalism.** London: Verso, p.7,36

[5] Spyer, p.49

[6] Eric Hobsbawm (1992) **Nations and Nationalism since 1780: Programme, Myth, Reality**. 2nd ed. Cambridge: Cambridge University Press.p.46-48

[7] Elie Kedourie (1960), **Nationalism**, an excerpt, Panarchy, Available at: https://www.panarchy.org/kedourie/nationalism.html, Accessed 17 September. 2024.

[8] Spyer,p.50

[9] Ibid.p.50
[10] Anthony D. S. Smith(1979)**Nationalism in the Twentieth Century** (New York: New York University Press, 1979.p.9,102,103
[11] Michael Barnett (1996). **Israel in Comparative Perspective: Challenging the Conventional Wisdom.** Albany: State University of New York Press. https://dx.doi.org/10.1353/book10149.
[12] Spyer,p.٦٥
[13]Jonathan Mendilow (2005). Uniqueness and Similarities in the Study of Israeli Parties: The Case of the 2003 Elections. **Israel Studies Review**, 20(1). doi:10.3167/isf.2005.200104
[14] Spyer,p.52
[15] Ben Halpern (1961) **The Idea of the Jewish State**. Cambridge, Massachusetts,p.6
[16] Spyer,p.61,p.65
[17] Uri Ram (1995) T**he Changing Agenda of Israeli Sociology—Theory, Ideology, and Identity** (Albany: State University of New York Press,p.172-173
[18] Spyer,p.53
[19] Ilan Pappé (2004) **A History of Modern Palestine: One Land, Two Peoples**.Cambridge: Cambridge University Press
[20] Oren Yiftachel (2002). Territory as the Kernel of the Nation: Space, Time and Nationalism in Israel/Palestine. **Geopolitics**, 7(2), 215–248. doi:10.1080/714000930 , p.217
[21] Gershon Shafir (1996) **Land, Labor and the Origins of the Israeli-Palestinian Conflict 1882–1914**, Berkeley : University of California Press,p. xi,83,163,83,204, available at: https://yplus.ps/wp-content/uploads/2021/01/Shafir-Gershon-Land-Labor-and-the-Origins-of-the-Israeli-Palestinian-Conflict-1882-1914.pdf , Accessed 17 September. 2024
[22] Spyer,p.56
[23] Yonathan Shapiro.(1976) **THE FORMATIVE YEARS OF THE ISRAELI LABOUR PARTY: The Organization of Power 1919—1939**. SAGE Studies in 20th Cèntury History Volume 4, London: SAGE Publications Ltd. ,p.29-68-69-161-162
[24] Zeev Sternhell(1998)**The Founding Myths of Israel: Nationalism, Socialism, And The Making of The Jewish State.** Translated by David Maisel.Princeton, New Jersey: Princeton University Press .P.22
[25] Arthur Hertzberg (1997**) The Zionist Idea: A Historical Analysis and Reader**. New York: The Jewish Publication Society. P.21
[26] Spyer,p.57
[27] Ibid.p.62
[28] Ibid.p.64
[٢٩] المسيري،المجلد الخامس، الجزء الثاني، الباب العشرين ، ص٣٠٧
[30] Hertzberg,p.34,p.38
[31] Ibid.p.36
[32] Eric Hobsbawm and Terence Ranger **(1983) The Invention of Tradition**. Cambridge: Cambridge University Press
[33] Ibid.p.1
[34] Ibid.p.2
[35] Ibid.p.2-3
[36] Hsiu-Fang Hsieh and Sarah E Shannon(2005) "Three Approaches to Qualitative Content Analysis." **Qualitative Health Research** 15, no. 9 (December 2005): 1277-1288
[37] Heidi Julien(2008) Content Analysis. **Vol. 1&2, in The Sage Encyclopedia of Qualitative Research Methods**, edited by Lisa M. Given, 120-122. Los Angeles, CA: Sage, p.120
[38] Theodor Herzl **(1946) The Jewish State.**Translated by Sylvie D'Avigdor**.New York:** American Zionist Emergency Council. Available at: https://www.almendron.com/blog/wp-content/images/2016/11/The-Jewish-State.pdf . last accessed 17 September 2024
[39] **Theodor Herzl (1916) First Congress Address**. In Hertzberg, Op.cit.pp:226-230
[40] Achad Ha-Am (1917) **The Spiritual Revival**. Translated by Leon Simon. London: The Zionist
[41] Leo Pinsker (1916**) Auto-Emancipation**: **An Admonition to His Brethren by a Russian Jew.** Translated by D.S. Blondheim, Second Edition. New York: Federation of American Zionists
[42] Moses Hess (1918) **Rome and Jerusalem: A Study in Jewish Nationalism**. Translated by Meyer Waxman. New York: Bloch Publishing Company: The Jewish Book Concern.
[43] Hertzberg, p.117-118

[44] المسيري ،المجلد السادس، الجزء الثاني، الباب الحادي عشر، ص ٢٤٨-٢٤٩
[45] Moses Hess (1918) **Rome and Jerusalem: A Study in Jewish Nationalism**. Translated by Meyer Waxman. New York: Bloch Publishing Company: The Jewish Book Concern. p.43, p.74
[46] Ibid.p.59
[47] Ibid.p.122-23
[48] Ibid.p.67
[49] Ibid.p.77
[50] Ibid.p.115-16
[51] Ibid.p.116
[52] Ibid.p.121
[53] Ibid.p.149
[54] Ibid.p.145
[55] Ibid.p.149
[56] Ibid.p.158
[57] Ibid.p.157-58
[58] Ibid.p.161
[59] Ibid.p.166
[60] المسيري،المجلد السادس، الجزء الثاني، الباب السابع، ص ١٠١
[61] Hertzberg,p.179
[62] Ibid.p.180
[63] Ibid.p.180-181
[64] المسيري، المجلد السادس، الجزء الثاني، الباب السابع، ص ١٠٥
[65] Leo Pinsker (1916**) Auto-Emancipation**: **An Admonition to His Brethren by a Russian Jew.** Translated by D.S. Blondheim, Second Edition. New York: Federation of American Zionists , p.1
[66] Ibid.p.6
[67] Ibid.p.2
[68] Ibid.p.2-3
[69] Ibid.p.3
[70] Ibid.p.4
[71] Ibid.p.4
[72] Ibid.p.4
[73] Ibid.p.5-6
[74] Ibid.p.7
[75] Ibid.p.8
[76] Ibid.p.8
[77] Ibid.p.9
[78] Ibid.p.11
[79] Ibid.p.12
[80] Ibid.p.13
[81] Ibid.p.15
[82] Ibid.p.17
[83] Ibid.p.17
[84] Ibid.p.18
[85] Ibid.p.18
[86] Ibid.p.18-19
[87] Ibid.p.20
[88] Ibid.p.23
[89] Hertzberg,p.15
[90] Judd Harmon(1994), **Political Thought from Plato to the Present**, McGraw-Hill,Inc., New York.p.192
[91] Hertzberg, p.201
[92] Ibid.p.202
[93] Ibid.p.203
[94] Hillel Halkin (2016) "**What Ahad Ha'am Saw and Herzl Missed – and Vice Versa**." Mosaic, October 5, 2016. https://mosaicmagazine.com/essay/history-ideas/2016/10/what-ahad-haam-saw-and-herzl-missed-and-vice-versa/.Google Scholar, last accessed 18 September 2024
[95] Hertzberg.p.203

[96] Ibid.p.204
[97] Theodore Herzl, The Jewish State, Preface, in Hertzberg, p.204
[98] Ibid,p.204
[99] Ibid.p.205
[100] Ibid.p.208
[101] Theodor Herzl (1946) **The Jewish State.** Translated by Sylvie D'Avigdor**.** New York**:** American Zionist Emergency Council. Available at: https://www.almendron.com/blog/wp-content/images/2016/11/The-Jewish-State.pdf . last accessed 17 September 2024,p.1
[102] Herzl in Hertzberg, p.208
[103] Herzl, The Jewish State, p.2
[104] Ibid.p.1
[105] Ibid.p.2
[106] Herzl in Hertzberg, p.210
[107] Herzl, First Congress Address, in Hertzberg, p.229
[108] Herzl, the Jewish State, p.2
[109] Ibid.p.2-3
[110] Ibid.p.1
[111] Ibid.p.6
[112] Ibid.p.7
[113] Ibid.p.8
[114] Jean-Paul Sartre(1976) Anti-Semite and jew: An Exploration of The Etiology of Hate. Translated By George J.Becker. New York: Schocken Books Inc.,p. 26-27,53-54
[115] المسيري،المجلد الثاني،الجزء الثالث، الباب الأول، ص١٣٨ و ص١٤٢-١٤٣
[116] Herzl, the Jewish State, p.2
[117] Ibid.p.22
[118] Herzl, First Congress, Op.cit.p.229
[119] Herzl, First Congress, Op.cit.p.229
[120] Benzion Netanyahu (2012) **The Founding Fathers of Zionism**. Jerusalem: Balfour Books (Epub file: Part II,III in Herzl)
[121] Ibid.Part III
[122] Ibid.part III
[123] Ibid.part.IV
[124] Herzl, The Jewish State, Op.cit.p.3
[125] Ibid.p.4
[126] Ibid.p.4
[127] Ibid.p.8
[128] Ibid.p.9
[129] Hertzberg, 249-250
[130] Ibid.p.250
[131] Ibid.250-251
[132] Ibid.p.251
[133] Ibid.p.61
[134] Ibid.p.51
[135] Achad Ha-Am (1917) **The Spiritual Revival**. Translated by Leon Simon. London: The Zionist,p.5
[136] Hertzberg,p.51
[137] Hertzberg, p.51
[138] Ibid.p.68-69
[139] Ha-Am .The Spritual,p.2
[140] Ibid.p.3
[141] Ibid.p.4
[142] Ibid.p.6
[143] Ibid.p.8
[144] Ibid.p.10
[145] Ibid.p.16
[146] Ibid.p.18
[147] Ibid.p.26

[148] Allan Arkush (2014) "Cultural Zionism Today." Israel Studies, vol. 19 no. 2, 2014, p. 1-14. Project MUSE, https://dx.doi.org/10.2979/israelstudies.19.2.1.,p.1
[149] Ibid.p.2
[150] Eyal Chowers (2012). The Political Philosophy of Zionism: Trading Jewish Words for a Hebraic Land. New York: Cambridge University Press.p.144
[151] Arkus, p.5
[152] Hillel Halkin, Op.cit.
[153] Hertzberg, p.19-20
[154] Ibid.p.55
[155] Ibid.p.56
[156] Ibid.p.62
[157] Arkush, p.8,9
[158] Hertzberg, p.64
[159] Ha-Am, The Spritual,p.27
[160] Ibid.p.28
[161] Halkin, Op.cit.
[162] Ibid.
[163] Ibid.
[164] Ha-Am, the Spiritual, p.32
[165] Hertberg,p.52
[166] Ibid.p.57
[167] Ha-Am, The Spiritual,p.28-29
[168] Ibid.p.29
[169] Ibid.p.30
[170] Ibid.p.32
[171] Ibid.p.36